

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٠ - سُورَةُ طه

وهي مكية . وقيل : إلا قوله تعالى (١) (فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ) الآية . وقوله (٢)
(وَلَا تَحْزَنْ عَيْنَيْكَ) الآية ، وآياتها مائة وخمسة وثلاثون .

(٢) [٢٠ / طه / ١٣١] .

(١) [٢٠ / طه / ١٣٠] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (طه)

[٢] (مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)

[٣] (إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ يَخْشَى)

« طه » قدمنا أن الحق في هذه الحروف التي افتتحت بها سورها ، أنها أسماء لها . وفيه إشارة إلى أنها مؤلفة منها . ومع ذلك ففي معجزهم عن محاسنها أبلغ آية على صدقها . ونبه الإمام ابن القيم رحمه الله على نكتة أخرى في (الكافية الشافية) بقوله :

وانظر إلى السور التي افتتحت بأحرفها ترى سرّاً عظيم الشان
لم يأت قط بسورة إلا أتى في إثرها خبر عن القرآن
إذ كان إخباراً به عنها . وفي هذا الشفاء لطالب الإيمان
ويدل أن كلامه هو نفسها لا غيرها ، والحق ذو تبيين
فانظر إلى مبدا الكتاب وبعدها الـ أعراف ثم كذا إلى لقمان
مع تلوها أيضاً ومع حمّ مع يسّ وافهم مقتضى الفرقان

« مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى » أي لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم ، وتحسرك على أن يؤمنوا و (الشقاء) في معنى التعب . ومنه المثل : أشقى من رائض مهر . وقوله تعالى : « إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ يَخْشَى » أي تذكيراً له . أي (مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ) لتتعب بتبليغه ، ولكن تذكرة لمن في قلبه خشية ورقة يتأثر بالإنذار . والقصد أنه ما عليك إلا أن تبلغ وتذكر ، ولم يكتب عليك أن يؤمنوا لاجمالة . وقد جرت السنة الإلهية

في خطاب الرسول في مواضع من التنزيل ، أن ينهاه عن الحزن عليهم وضيق الصدر بهم ، كقوله تعالى (١) : (فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ) (فَلَعَلَّكَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ تَقْنَعُ) (٢) عَلَى آثَرِهِمْ) (٣) (وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْرِغُونَ فِي الْأَكْفُرِ) (٤) وهذه الآية من هذا الباب أيضاً . وفي ذلك كله من تكريم الرسول صلوات الله عليه ، وحسن العناية به والرأفة ، ما لا يخفى . ثم أشار إلى تضخيم شأن هذا المنزل الكريم ، لنسبته إلى المتفرد بصفاته وأفعاله ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى)

[٥] (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أُسْتَوَى)

« تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ » قرئ بالرفع على المدح . أى هو الرحمن . وبالجر على أنه صفة للموصول . وقوله « عَلَى الْعَرْشِ أُسْتَوَى » أى علا وارتفع . قاله ابن جرير (٤) . وقد ذهب الخلف إلى جعل ذلك مجازاً عن الملك والساطان . كقولهم (استوى فلان على سرير الملك) وإن لم يقعد على السرير أصلاً .

وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته أيضاً . قال ابن كثير : والمسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف ، من إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة ، من غير تكميف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل . وقد أسلفنا ما حققته أئمة الفلك الحديث ؛ من أن العرش جرم حقيق موجود . وأنه مركز العوالم كلها . أى مركز الجذب والتدبير والتأثير والنظام .

(١) [٧ / الأعراف / ٢] . (٢) [١٨ / الكهف / ٦] .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٧٦] . (٤) انظر الصفحة رقم ١٣٨ من الجزء السادس

عشر من تفسير الطبري (طبعة الحلبي الثانية) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (لَهُ وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ)

« لَهُ وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ » .

بيان لشمول قهره وملكوته للكل . أى كلها تحت ملكته وقهره وسلطنته وتأثيره .
لا توجد ولا تتحرك ولا تسكن ولا تتغير ولا تثبت إلا بأمره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ)

« وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ » .

بيان لكمال لطفه . أى علمه نافذ في الكل . يعلم ظواهرها وبواطنها والسر وسر السر .
فكذلك إن تجهر وإن تحفت ، فيعلمه بجهر وخفت .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ)

« اللَّهُ » أى ذلك المُنزَل الموصوف بهذه الصفات هو الله « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ

الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ » أى الفضلى ، لدالاتها على معانى التقديس والتجديد والتعظيم والربوبية
والأفعال التى هى النهاية فى الحسن . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَهَلْ أُنْتَكِحَ حَدِيثُ مُوسَىٰ)

[١٠] (إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا

بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى)

« وَهَلْ أُنْتَكِحَ حَدِيثُ مُوسَىٰ » من عطف القصة أو استئناف . والقصد تقرير أمر

التوحيد الذي انتهى إليه الآية قبله ، ببيان أنه دعوى كل نبي لاسميا أشهرهم نبأ ، وهو موسى عليه السلام . فقد خوطب بقوله تعالى (١) «إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا» وبختم تعالى نبأه في هذه السورة بقوله (٢) «إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» أو تقرير لسعة علمه البين في قوله تعالى (٣) «وَإِنْ تَجَهَّرَ بِأَقْوَالٍ» الخ لقوله بعد (وَسِجِّعَ كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) (٤) أو لها معا . أو لحمله ، صلوات الله عليه ، على التأسى بموسى في الصبر والثبات . لكونه ابتلى بأعظم من هذا فصبر ، وكانت العاقبة له . وقد أشير في طليعة نبأ موسى عليه السلام ، إلى كيفية ابتداء الوحي إليه ، وتكليمه تعالى إياه . وذلك بعد أن قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم . وسار بأهله قاصداً ببلاد مصر ، بعد ما طالت غيبته عنها ومعه زوجته . فأضل الطريق . وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال في برد وشتاء . وبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً ، كما قصه تعالى بقوله « إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا » أي أبصرتها إبصاراً بيناً لا شبهة فيه « لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ » أي بشعلة مقتبسة تصطلون بها : « أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى » أي هادياً يدلني على الطريق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَىٰ

[١٢] (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعْ نَعْلَيْكَ ، إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)

« فَلَمَّا أَتَاهَا » أي النار « نُودِيَ يَمْوَسَىٰ » أي أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ

بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى » أي فيجب فيه رعاية الأدب ، بتعظيمه واحترامه لتجلى الحق فيه ، كما يراعى أدب القيام عند الملوك (وطوًى) اسم للوادي .

(١) [٢٠ / طه / ١٤] .

(٢) [٢٠ / طه / ٩٨] .

(٣) [٢٠ / طه / ٧] .

(٤) [٢٠ / طه / ٩٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَأَنَا أُخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ)

[١٤] (إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[١٥] (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ)

« وَأَنَا أُخْتَرْتُكَ » أى اصطفتيك للنبوة « فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ » أى للذى يوحى .
أو للوحى . ثم بينه بقوله « إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي » أى خصنى بالعبادة
« وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي » أى لتذكرنى فيها بقلبك ولسانك وسائر جوارحك ، بأن تجعل
حركاتها دالة على ما فى القلب واللسان . قال أبو السعود : خصت الصلاة بالذكر وأفردت
بالأمر بالعبادة ، لفضلها وإنافتها على سائر العبادات ، بما نيظت به من ذكر المعبود وشغل
القلب واللسان بذكره . وذلك قوله تعالى (لِذِكْرِي) أى لتذكرنى . فإن ذكرى كما ينبغى
لا يتحقق إلا فى ضمن العبادة والصلاة . أو لتذكرنى فيها لاشتمالها على الأذكار . أو لتذكرى
خاصة لا تشوبه بذكر غيرى . أو لإخلاص ذكرى وابتغاء وجهى . لا ترائى بها ، ولا تقصد
بها غرضاً آخر . أو لتكون ذا كراملى ، غير ناس . انتهى .

ثم أشار إلى وجوب إفراده بالعبادة وإقامة الصلاة لذكره ، بقوله « إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ »
أى واقعة لا محالة « أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ » أى بسعيها عن اختيار
منها . واللام متعلقة بـ (آتية) . ولما كان خفاء الساعة من اليقينيات وفى (كاد) معنى القرب
من ذلك ، لعدم وضعها للجزم بالفعل ، تأولوا الآية على وجوه :

أحدها - أن (كَادَ) منه تعالى واجب . والمعنى أنا أخفيها عن الخلق . كقوله (١) (عَسَىٰ
أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا) أى هو قريب .

ثانيها - قال أبو مسلم : (أَكَادُ) بمعنى أريد كقوله (٢) : (كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ)

(١) [١٧ / الإسراء / ٥١] . (٢) [١٢ / يوسف / ٧٦] .

ومن أمثالهم المتداولة (لا أفعل ذلك ولا أكاد) أى ولا أريد أن أفعله . قال الشهاب : تفسير (أَكَادُ) ؛ (أريد) هو أحد معانيها . كما نقله ابن جنى فى (المحتسب) عن الأخفش . واستدلوا عليه بقوله (١) .

كَادَتْ وَكَدَتْ وَتَلَّكَ خَيْرُ إِرَادَةٍ لَوْ عَادَ مِنْ لَهْوِ الصَّبَابَةِ مَا مَضَى
بمعنى أرادت . لقوله (تلك خير إرادة) .

ثالثها - أن (أَكَادُ) صلة فى الكلام . قال زيد الخليل (٢) .

سريعٌ إلى الهيجاءِ شاكٍ سلاحُهُ فما إنَّ يَكَادُ قِرْنَهُ يَنْتَفِسُ
رابعا - أن المعنى أ كاد أخفيها فلا أذكرها إجمالا ولا أقول هي آتية . وذلك لفرط إرادته تعالى إخفاءها . إلا أن فى إجمال ذكرها حكمة ، وهى اللطف بالمؤمنين ، لحثهم على الأعمال الصالحة ، وقطع أعذار غيرهم حتى لا يمتدروا بدم العلم . وثمة وجوه أخر لا تخلو من تكلف ، وإن اتسع اللفظ لها . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى)

« فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا » أى عن تصديق الساعة « مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ » أى ما تهواه نفسه من الشهوات وترك الفطر والاستدلال . « فَتَرْدَى » أى فتهلك .

قال الزمخشري : يعنى أن من لا يؤمن بالآخرة هم الجم الغفير . إذ لا شىء أطم على الكفرة ، ولا هم أشد له نكيرا من البعث . فلا يهولنك وفور دهاهم ، ولا عظم سوادهم . ولا تجعل الكثرة مزلة قدمك . واعلم أنهم ، وإن كثروا تلك الكثرة ، فقدوتهم فيما هم فيه هو الهوى

(١) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٣٨٥ من المجلد الثالث (طبعة بيروت) ولم يسم

قائله . وفيه (لو كان) عوضا عن (لو عاد) .

(٢) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٣٨٤ من المجلد الثالث (طبعة بيروت) .

واتباعه . لا البرهان وتدابره . وفي هذا حث عظيم على العمل بالدليل ، وزجر بليغ عن التقليد ، وإنذار بأن الهلاك والردي مع التقليد وأهله . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ)

[١٨] (قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّوْا عَلَيْهَا وَاهْتَشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ)

« وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ » شروع فيا سيؤتيه تعالى من البرهان الباهر . وفي الاستفهام إيقاظه وتنبيهه على ما سيدوله من عجائب الصنع « قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّوْا عَلَيْهَا » أى أعتد عليها إذا أعييت أو وقفت على رأس القطيع وعند الطفرة « وَاهْتَشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي » أى أخبط بها الورق وأسقطه عليها لتأكله « وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ » أى حاجت أخر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (قَالَ أَأَلْقَاهَا يَمُوسَىٰ)

[٢٠] (فَأَلْقَمَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ)

[٢١] (قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ، سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ)

« قَالَ أَأَلْقَاهَا يَمُوسَىٰ » * فَأَلْقَمَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ » أى هيئتها الأولى فتنفع بها كما كنت تنفع من قبل . أى ليس القصد تخويفك ، بل إظهار ما فيها من استمداد قبول الحياة ، ومشاهدة معجزة وبرهان لك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۗ ءَايَةٌ أُخْرَىٰ)

[٢٣] (لِئُرِيكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَىٰ)

« وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ » أى إبطك « تَخْرُجُ بَيْضَاءَ » أى نيرة « مِنْ غَيْرِ سُوءٍ » أى قبيح وعيب كبياض البرص مما ينفرد عنه . واعتمد الزمخشري ؛ أن قوله تعالى (مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) كناية عن البرص . كما كنى عن العورة بالسوأة ، قال : والبرص أبيض شئ إلى العرب ، وبهم عنه نكرة عظيمة . وأسماعهم لاسمه بحجة . فكان جديراً بأن يكنى عنه . ولا ترى أحسن ولا أطف ولا أحرّ للفواصل من كنايات القرآن وآدابه . انتهى . « ءَايَةٌ أُخْرَىٰ » أى معجزة أخرى غير العصا « لِئُرِيكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَىٰ » متعلق بمضمر ينساق إليه النظم الكريم . أى أريناك ما أريناك الآن ، مع أن حقهما أن يظهرهما بعد التحدى والمناظرة ، لئريك أولاً بعض آياتنا الكبرى ، فيقوى قلبك على مناظرة الطغاة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ)

« أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ » تخلص إلى ما هو المقصود من تهديد المقدمات السالفة . فُصِّل عما قبله من الأوامر إيداناً بأصالته . أى اذهب إليه بما رأيتَه من الآيات الكبرى ، وادعه إلى عبادتى وحذرته نقتى . أفاده أبو السعود .

وقوله تعالى « إِنَّهُ طَغَىٰ » أى جاوز الحد في التكبر والعتو ، حتى تجاسر على العظيمة التى هى دعوى الربوبية . فلا بد من تنبيهه على طغيانه بالدلائل العقلية ، التى صدقتها المعجزات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي)

[٢٦] (وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي)

[٢٧] (وَأَخْلِلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي)

[٢٨] (يَفْقَهُوا قَوْلِي)

« قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَأَخْلِلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي » إنما سأل ذلك ، لما كان يتخوفه من آل فرعون في القتل . ولما بعث به من صدع جبار عنيد ، أطفئ الملوك وأبلغهم تمرداً وكفراً ، مما يحوج إلى عناية ربانية . وسأل أن يُمدَّ بمنطق فصيح ، لما في لسانه من عقدة كانت تمنعه من كثير من الكلام كما قال ^(١) (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا) وقول فرعون ^(٢) (وَلَا يَسْكَدُ يَمِينُ) ثم سأل عليه السلام ربه أن يعينه بأخيه هرون ، ليكون له رديءاً ، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي)

[٣٠] (هَارُونُ أَخِي)

[٣١] (أَشَدُّ بِهِءَ أَزْرِي)

« وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونُ أَخِي * أَشَدُّ بِهِءَ أَزْرِي » أي قوّ به

ظمري .

(١) [٢٨ / القصص / ٣٤] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٥٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي)

[٣٣] (كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا)

[٣٤] (وَنَذُكُرَكَ كَثِيرًا)

[٣٥] (إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا)

« وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذُكُرَكَ كَثِيرًا » أى كى نتعاون على تسبيحك وذكرك . لأن التعاون - لأنه مهبج الرغبات - يتزايد به الخير ويتكاثر « إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا » أى عالماً بأحوالنا ، وبأن الدعوى به مما يفيدنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ)

[٣٧] (وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ)

« قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ » أى أجيب دعاؤك . وقوله تعالى « وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ » كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله ، وزيادة توطين نفس موسى عليه السلام بالقبول ، ببيان أنه تعالى حيث أنعم عليه بتلك النعم التامة من غير سابقة دعاء منه وطلب ، فَلَا نَ يُنْعَمُ عَلَيْهِ بِمَثَلِهَا وَهُوَ طَالِبٌ لَهُ وَدَاعٍ ، أولى وأحرى . وتصديره بالقسم ، لسكال الاعتناء بذلك . أفاده أبو السعود .

وقوله تعالى : « مَرَّةً أُخْرَىٰ » أى فى وقت آخر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ)

[٣٩] (أَنْ أُقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّ لَهٗ ، وَآلَقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي)

« إِذْ أَوْحَيْنَا » أى ألقينا بطريق الإلهام « إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ » « أَنْ أُقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ » أى الصندوق « فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ » أى البحر، متوكله على خالقه « فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوِّي » لدعواه الألوهية « وَعَدُوُّ لَهٗ » لدعوته إلى نبذ ما يدعيه .

قال الزمخشري : لما كانت مشيئة الله تعالى وإرادته - أن لا تخطى جرية اليم، الوصول به إلى الساحل ، وإلقاءه إليه - سلك في ذلك سبيل المجاز. وجعل اليم كأنه ذو تمييز أمر بذلك، ليطيع الأمر ويمثل رسمه . فقيس (فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ) أى على سبيل الاستعارة بالكناية . بتشبيه اليم بأمور منقاد . وإثبات الأمر تخميل ، وقوله تعالى « وَآلَقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي » أى : واقعة منى ، زرعتها في قلب من يراك . ولذلك أحبك فرعون « وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي » أى ولتربى بيد العدو على نظرى بالحفظ والعناية . (ف على عيني) استعارة تمثيلية للحفظ والصون، لأن المصون يجعل بمرأى . قيل : (على) بمعنى الباء لأنه بمعنى بمرأى منى ، فى الأصل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ، وَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ، وَوَقَّلتَ نَفْسًا فَجَعَيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ)

وَفَتَّنَاكَ فُتُونًا ، فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوسَىٰ)

« إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ » أى يضمن حضنته ورضاعته .

فقبلوا قولها . وذلك لأنه لما استقر عند آل فرعون، عرضوا عليه المراضع فأبأها كما قال تعالى^(١) (وَحَرَّمَ مِمَّا عَلَيْهِ الْمَرَضِعُ) فجاءت أخته فقالت^(٢) (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ) فجاءت بأمه كما قال « فَرَجَعْتَا إِلَىٰ أُمِّكَ » أى مع كونك بيد العمدو « كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا » أى برؤيتك « وَلَا تَحْزَنَ » أى بفراقك . فهذه من زائدة على النجاة من القتل .

ثم أشار إلى مامنٍ عليه بالنجاة من القتل الذى لا يدفع بتليس، بقوله « وَقَتَلْتَ نَفْسًا » أى من آل فرعون ، وهو القبطى الذى استغاثه عليه الإسرائيلى ، إذ وكزه موسى ففضى عليه . أى : فانتصت للقصاص « فَتَجَمَّعَتِ الْفِتْنُ مِنْ أُمَّمٍ » أى غم القتل بأن صرفنا عنك ما تخشاه . وذلك أنه عليه السلام فرّ من آل فرعون حتى ورد ماء مدين . وقال له ذلك الرجل الصالح (لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)^(٣) « وَفَعَنْكَ فُتُونًا » أى ابتليتك ابتلاء . على أن (الفتون) مصدر كالشكور، أو ضروبا من الفتن على أنه جمع (فتنة) أى فجعلناك فرجاً ومخرجاً منها . وهو إجمال لما سبق ذكره .

« فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ » أى معزز الجانب مكفىّ المؤونة فى عشرة أتی رجل منهم وأصلحهم، وهو نبيهم عليه السلام « ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْؤُوسَىٰ » أى بمد أن قضيت الأجل المضروب بينك وبين شعيب من الإجارة ، جئت بأهلك على وفق ما سبق فى قضائى وقدرى؛ أن أكلك وأستنبئك فى وقت يمينه قد وقته لذلك . فما جئت إلا على ذلك القدر، غير مستقدم ولا مستأخر . فالأمر له تعالى . وهو المسير عباده وخلقه فيما يشاء .

قال أبو السعود : وقوله تعالى (يَمْؤُوسَىٰ) تشریف له عليه الصلاة والسلام، وتنبیه على انتهاء الحكاية التى هى تفصيل المرة الأخرى التى وقعت قبل المرة الحكيمة أولاً . وقوله تعالى :

(١) [٢٨ / القصص / ١٢] . (٢) [٢٨ / القصص / ١٢] . (٣) [٢٨ / القصص / ٢٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

[٤٢] (أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِأَيَّتِي وَلَا تَنِيأَ فِي ذِكْرِي)

« وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي » تذكير لقوله تعالى (وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ) وتمهيد لإرساله عليه السلام إلى فرعون مؤبداً بأخيه و(الاصطناع) افتعال من (الصنع) بمعنى الصنعة . يقال : اصطنع الأمير فلاناً لنفسه ، أى جملة محلاً لإكرامه باختياره وتقريبه منه ، بجمله من خواص نفسه وندمائه ، فاستعير استعارة تمثيلية من ذلك المعنى المشبه به إلى المشبه . وهو جملة نبياً مكرماً كلياً منعماً عليه بجلائل النعم . قال أبو السعود : والمدول عن نون العظمة الواقعة في قوله تعالى (وَفَتَنَّاكَ) ونظيره السابقين ، تمهيداً لإفراد لفظ (النفس) اللائق بالمقام ، فإنه أدخل في تحقيق معنى (الاصطناع) و (الاستخلاص) . ثم بين ماهو المقصود بـ(الاصطناع) بقوله سبحانه « أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِأَيَّتِي » أى بمعجزاتى . كالعصا وبياض اليد وحل العقدة ، مع ما استظهره على يده « وَلَا تَنِيأَ فِي ذِكْرِي » أى لا تفترأ ولا تقصراً في ذكري بما يليق بي من النعمت الجليلة ، عند تبليغ رسالتى والدعاء إلى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ)

[٤٤] (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّمَنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ)

« أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّمَنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ » أى عقابى . فإن تليين القول مما يكسر سورة عناد العتاة ، ويلين عريكة الطغاة . وقد بين ذلك في قوله تعالى^(١) (فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ) وبمثل ذلك

(١) [٧٩ / النازعات / ١٨ و ١٩] .

أمر نبينا صلوات الله عليه في قوله^(١) : (أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) وظاهر أن الرجاء في (لعله) إنما هو منهما ، لامن الله . فإنه لا يصح منه . ولذا قال القاضي : أى باشرا الأمر على رجائك وطمعك أنه يشعر ولا يخيب سعيك . فإن الرجى ، مجتهد والآيس متكلف . والفائدة في إرسالها والمبالغة عليهما في الاجتهاد - مع علمه بأنه لا يؤمن - إزام الحجة ، وقطع العذرة ، وإظهار ما حدث في تضاعيف ذلك من الآيات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ)

[٤٦] (قَالَ لَا تَخَافَا ، إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ)

« قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا » أى يبادرنا بالعقوبة « أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ » أى يزداد طغياناً بالعناد، فى دفع حججنا، ثم يأمر بقتلنا. أو بالتخطى إلى أن يقول فى شأنك ما لا ينبغى ، لجرأته وقسوة قلبه . واقتصر على الثانى الزمخشري . وأفاد ؛ أن فى الجىء به هكذا على الإطلاق، وعلى سبيل الرمز، باباً من حسن الأدب، وتحاشياً عن التفوه بالعظيمة: « قَالَ لَا تَخَافَا » أى من فرطه وطغيانه « إِنَّنِي مَعَكُمَا » أى بالحفظ والنصرة « أَسْمَعُ وَأَرَىٰ » أى ما يجرى بينكما وبينه. فأرعاكما بالحفظ. فالفعل محذوف للقريئة، أو نزل منزلة اللازم تسمياً لما يستقل به الحفظ . كأنه قيل : أنا حافظ لكما وناصر ، سامع وبصير . وإذا كان الحافظ كذلك ، تمَّ الحفظ والتأييد ، وذهبت المبالاة بالعدو .

(١) [١٦ / النحل / ١٢٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ ،

قَدْ جِئْنَاكَ بَأْيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى)

« فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ » أى بإطلاقهم من الأسر والعبودية . وتسريحهم معنا إلى وطننا فلسطين « وَلَا تَعَذِّبْهُمْ » أى بإبقائهم على ما هم عليه من التسخير والتذليل فى الأمور الشاقة « قَدْ جِئْنَاكَ بَأْيَةٍ مِّن رَّبِّكَ » أى تحقق رسالتى إليك منه تعالى بذلك « وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى » أى فصدق بآيات الله المبينة للحق . وفيه من ترغيبه فى اتباعهما ، على أطف وجه ، ما لا يخفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ)

« إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا » أى من ربنا « أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ » أى بآياته تعالى « وَتَوَلَّىٰ » أى أعرض عنها . وفيه من التلطيف فى الوعيد ، حيث لم يصرح بحلول العذاب به ، ما لا مزيد عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ)

[٥٠] (قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَثُمَّ هَدَىٰ)

« قَالَ » أى فرعون « فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَثُمَّ هَدَىٰ » أى منح كل شىء من الأنفس البشرية ، صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به ، فسواه بها وعدله ، ثم هداه بأن وهبه العقل الذى يميز بين الخير والشر .

وهذه الآية في معناها كآية^(١) (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) وآية^(٢) (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ)

[٥٢] (قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ، لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى)

« قَالَ » أى فرعون « فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ » * قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى « أى ما حال القرون السالفة وما جرى عليهم ؟ وهذا السؤال إما لصرف موسى عليه السلام عما يدعوه إليه أمام ملئه ، وإشغاله بما لا يعنى ما أرسل به ، وإما لتوهم أن الرسول يعلم الغيب ، فأراد أن يقف على نبأ ما مضى ، ويفتح باباً للتخطئة والتكذيب ، بالعناد واللاجاج . فأجابه موسى عليه السلام بأن هذا سؤال عن الغيب وقد استأثر الله به . فلا يعلمه إلا هو . وليس من وظيفة الرسالة . وإنما علمها مكتوب في اللوح المحفوظ ، محصى غير منسى . ويجوز أن يكون (فِي كِتَابٍ) تمثيلاً لتمكنه وتقريره في علم الله عز وجل ، بما استحفظه العالم وقيده بالكتابة . قال في العناية : فيشبهه علمه تعالى بها علماً ثابتاً لا يتغير ، بمن علم شيئاً وكتبه في جريدته ، حتى لا يذهب أصلاً ، فيكون قوله (لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى) ترشيحاً للتمثيل ، واحتراساً أيضاً . لأن من يفعل ذلك إنما يفعله لخوف النسيان . والله تعالى منزه عنه . فد (الكتاب) على هذا بمعناه اللغوى . وهو الدفتر ، لا اللوح المحفوظ . وقوله تعالى :

(١) [٩١ / الشمس / ٨٧] . (٢) [٩٠ / البلد / ١٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ

مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ)

«الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا» أى فراشاً «وَسَلَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ

مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ» أى أصنافاً من نبات مختلفة الأجناس ، فى الطعم والرائحة والشكل والنفع .

لطيفة :

جعل الزمخشريّ قوله تعالى (فَأَخْرَجْنَا) من باب الالتفات . وناقشه الناصر ؛ بأن الالتفات إنما يكون فى كلام المتكلم الواحد . بصرف كلامه على وجوه شتى . وما نحن فيه ليس كذلك . فإن الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام قوله لفرعون (عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى) ثم قوله (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا) إلى قوله (فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ) فإما أن يجعل من قول موسى ، فيسكون من باب قول خواص الملك (أمرنا وعمرنا) وإنما يريدون الملك ، وليس هذا بالالتفات . وإما أن يكون كلام موسى قد انتهى عند قوله (وَلَا يَنسَى) ثم ابتدأ الله تعالى وصف ذاته بصفات إنعامه على خلقه ، فليس التفتاتاً أيضاً . وإنما هو انتقال من حكاية إلى إنشاء خطاب . وعلى هذا التأويل ينبغى للقارئ أن يقف وُقَيْفَةً عند قوله (وَلَا يَنسَى) ليستقر بانتهاء الحكاية . ويحتمل وجهاً آخر وهو ؛ أن موسى وصف الله تعالى بهذه الصفات على لفظ الغيبة . فقال (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ) فلما حكاها الله تعالى عنه ، أسند الضمير إلى ذاته . لأن الحكاكي هو المحكيّ فى كلام موسى . فرجع الضميرين واحد . وهذا الوجه وجه حسن رقيق الحاشية . وهذا أقرب الوجوه إلى الالتفات . لكن الزمخشريّ لم يعنه . والله أعلم . انتهى كلام الناصر . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ)

[٥٥] (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ)

« كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ » حال من ضمير (فَأَخْرَجْنَا) على إرادة القول « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ * مِنْهَا » أى من الأرض « خَلَقْنَاكُمْ » أى خلقنا أصلكم وهو آدم . أو خلقنا أبدانكم من النطفة المتولدة عن الأغذية ، المتولدة من الأرض بوسائط « وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ » أى بالإماتة إعادة البذر إلى الأرض « وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ » أى بردهم كما كانوا ، أحياء . ثم أشار تعالى إلى عتو فرعون وعناده ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ)

[٥٧] (قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ)

[٥٨] (فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ يَمِينًا وَبَيْتًا مَّوْعِدًا لَا تَخْلِفْهُ

نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوَّىٰ)

« وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا » أى من العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنين « فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ * قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ يَمِينًا وَبَيْتًا مَّوْعِدًا لَا تَخْلِفْهُ وَنَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوَّىٰ » أى مستويًا واضحًا مجمعا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى)

[٦٠] (فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ)

« قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ » وهو يوم مشتهر عندهم باجتماع الناس فيه « وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى » أى ضحوة النهار ليكون الأمر مكشوفاً لا سترة فيه « فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ » أى انصرف عن المجلس « فَجَمَعَ كَيْدَهُ » أى ما يكيد به موسى ، من السحرة وأدواتهم « ثُمَّ أَتَىٰ » أى الموعد ومعه ما جمعه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيَلِكُكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ

وَقَدْ خَابَ مَنْ أَفْتَرَىٰ)

[٦٢] (فَتَنْزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ)

[٦٣] (قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا

وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَىٰ)

« قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ » أى مقدماً لهم النصح والإنذار ، لينقطع عندهم « وَيَلِكُكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » أى لا تخيلوا للناس بأعمالكم ، إيجاد أشياء لا حقائق لها ، وأنها مخلوقة وليست مخلوقة . فتكونوا قد كذبتهم على الله تعالى « فَيُسْحِتَكُمْ » أى يستأصلكم « بِعَذَابٍ » أى هائل لغضبه عليكم « وَقَدْ خَابَ مَنْ أَفْتَرَىٰ * فَتَنْزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ * قَالُوا » أى بطريق التنجى والإسرار « إِنْ هَذَا إِلَّا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَىٰ » أى بذهابكم

الأفضل . وهو ما كانوا عليه . يعنون أن قصد موسى وهرون هو عزل فرعون عن ملكه ، يجعله عبداً لغيره ، واستقرارها في مكانه ، وجعل قومهما مكانكم . وإلجائكم إلى مبارحة أرضكم ، وإبطال طريقةكم بسحرها الذي يريدان إيجازكم به . و (الْمُثَلَّى) تأنيث الأمثل ، بمعنى الأفضل . ودعواهم ذلك ، لأن كل حزب بما لديهم فرحون .

لطيفة :

في قوله تعالى (إِنَّ هَذَانِ لَسَاجِرَانِ) قراءات .
الأولى - (إِنَّ هَذَيْنِ لَسَاجِرَانِ) بتشديد النون من (إِنَّ) و (هَذَيْنِ) بالياء وهي قراءة أبي عمرو ، وهي جارية على السَّنِّ المشهور في عمل (إِنَّ) .
والثانية - (إِنَّ هَذَانِ لَسَاجِرَانِ) بتخفيف (إِنَّ) وإهالها عن العمل ، كما هو الأكثر فيها إذا خفت ؛ وما بعدها مرفوع بالابتداء والخبر . واللام لام الابتداء فرقاً بينها وبين النافية . ويرى الكوفيون أن اللام هذه بمعنى (إِلَّا) و (إِنَّ) قبلها نافية ، واستدلوا على مجيء اللام للاستثناء بقوله (١) :

أمسى أبانٌ ذليلاً بعد عزِّته وما أبانٌ لِمِنْ أَعْلَاجِ سُودَانَ
والثالثة - (إِنَّ هَذَانِ لَسَاجِرَانِ) بتشديد (إِنَّ) و (هَذَانِ) بالالف . وخرَّجت على أوجه :

أحدها - موافقة لغة من يأتي في المثني بالالف في أحواله الثلاث . وهم بنو الحرث ابن كعب وخثعم وَرُبَيْدٌ وكنانة وآخرون . قال قائلهم (٢) :

* تَزَوَّدَ مِنَّا بَيْنَ أُذُنَاهُ طَعْنَةً *

(١) انظر الشاهد رقم ٣٨٥ من (معنى اللبيب لابن هشام) .

(٢) انظر الشاهد الرابع عشر من (شذور الذهب لابن هشام) وعجز البيت :

* دَعَّعَتْهُ إِلَى هَائِي التَّرَابِ عَقِيمٌ *

وقال آخر :

إِنَّ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا قَدْ بَلَغَا فِي الْمَجْدِ غَايَتَاهَا
ثَانِيهَا - إِنَّ (إِنَّ) بمعنى (نعم) حكاه المبرد . واستدل بقول الراجز (٢) :
يا عمر الخيرِ جُزَيْتَ الْجَنَّةَ اكسُ بُتَيَّانِي وَأُمَّسِنَّهُ
وَقُلْ لَهُنَّ : إِنَّ أَنْ إِنَّهُ أَقْسِمُ بِاللَّهِ لَتَفْعَلَنَّه
وقول (٣) عبدالله بن قيس الرقيّات :

وَيَقْلَنَ شَيْبَ قَدِ عَلَا
لَكَ وَقَدْ كَبُرْتَ فَقُلْتَ إِنَّهُ

وردَّ على المبرد أبو علي الفارسيّ ، بأنه لم يتقدم ما يجاب به (نعم) وأجاب الشمسيّ ، بأن التنازع فيما بينهم ، وإسرار النجوى ، يتضمن استخبار بعضهم من بعض . فهو جواب للاستخبار الضمنيّ . ولا يخفى بعده . فإن إسرار النجوى فيما بينهم ليس في الاستخبار عن كونهما ساحرين ، بل هم جزموا بالسحر فقالوا (٤) : (أَجِئْنَا لِنُخْرِجَنَّ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكِ) ثم أسروا النجوى فيما يقبلان به موسى . إلا أن يقال : محطّ الجواب قوله (فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ) الخ ، وما قبله توطئة . وقد رد في (المغني) هذا التخريج ؛ بأن مجيئ (نعم) شاذ حتى تفاه بعضهم . ومنعه الدمامينيّ ؛ بأن سيويه والحدّاق حكوه عن الفصحاء . وعليه ، فاللام في (لَسَحْرَانِ) لام الابتداء ، زحلت للخبر . وأبي البصريون دخولها على الخبر . وزعموا أنها في مثله داخلة على مبتدأ محذوف ، أو زائدة ، أو دخلت مع (إن) التي بمعنى (نعم) لشبهها بالموكدة لفظاً .

وأقول : فيه تكلف . والشواهد على اقتران الخبر باللام كثيرة .

(١) انظر الشاهد رقم ٥١ من (مغني اللبيب لابن هشام) .

(٢) لم أهتد إليه الآن ، وخصوصاً الشطر الثالث .

(٣) انظر الشاهد رقم ٤٩ من (مغني اللبيب لابن هشام) . (٤) [٢٠ / طه / ٥٧] .

وثالثها - أنه لما كان الإعراب لا يظهر في الواحد ، وهو (هذا) جمل كذلك في التثنية ، ليكون المثني كالمفرد . لأنه فرع عليه . واختار هذا القول الإمام العلامة تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى ، وزعم أن بناء المثني ، إذا كان مفردة مبنياً ، أفصح من إعرابه . قال : وقد تفتن لذلك غير واحد من حذاق النحاة . ثم اعترض بأمرين :

أحدهما - أن السبعة أجمعوا على الياء في قوله تعالى ^(١) : (إِحْدَى أُبْنَتَى هَاتَيْنِ) مع أن هاتين تثنية (هاتا) وهو مبنى .

والثاني - أن (الذي) مبنى وقد قالوا في تثنيته (الَّذِينَ) في الجر والنصب . وهي لغة القرآن ، كقوله تعالى ^(٢) : (رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا) وأجاب الأول ؛ بأنه إنما جاء (هاتين) بالياء على لغة الإعراب لمناسبة (ابنتي) قال : فالإعراب هنا أفصح من البناء ، لأجل المناسبة . كما أن البناء في (إِنَّ هَذَانِ لَسَّحِرَانِ) أفصح من الإعراب لمناسبة الألف في (هذان) للألف في (ساحران) . وأجاب عن الثاني بالفرق بين (اللذان) و (هذان) بأن (اللذان) تثنية اسم ثلاثي ، فهو شبيه (بالزيدان) و (هذان) تثنية اسم على حرفين . فهو عريق في البناء لشبهه بالحروف . قال رحمه الله : وقد زعم قوم أن قراءة من قرأ (إِنَّ هَذَانِ) لحن وإن عثمان رضي الله عنه قال (إن في المصحف لحنًا وستقيمه العرب بألسنتها) وهذا خبر باطل لا يصح من وجوه .

أحدها - إن الصحابة كانوا يتسارعون إلى إنكار أذنى المنكرات ، فكيف يقرّون اللحن في القرآن ، مع أنهم لا كلفة عليهم في إزالته ؟

والثاني - أن العرب كانت تستقبح اللحن غاية الاستقبح في الكلام ، فكيف لا يستقبحون بقاءه في المصحف ؟

(١) ٢٨ / القصص / ٢٧ . (٢) [٤١ / فصلت / ٢٩] .

والثالث - أن الاحتجاج بأن العرب ستقيمه بألسنتها غير مستقيم . لأن المصحف الكريم يقف عليه العربي والعجمي .

والرابع - أنه قد ثبت في الصحيح أن زيد بن ثابت أراد أن يكتب (التابوت) بالهاء على لغة الأنصار ، فمنعوه من ذلك ورفعوه إلى عثمان رضي الله عنهم . فأمرهم أن يكتبوه بالتاء على لغة قريش . ولما بلغ عمر رضي الله عنه أن ابن مسعود رضي الله عنه قرأ : عَتَّى حِينَ ، على لغة هذيل ، أنكر ذلك عليه وقال : أقرئ الناس بلغة قريش . فإن الله تعالى إنما أنزله بلغتهم ، ولم ينزله بلغة هذيل . انتهى كلام تقي الدين ملخصاً .

هذا حاصل ما في (المغني) و (الشذور) و (حواشيهما) وفي الآية وجوه أخرى استقصتها المطولات . وما ذكرناه أرقها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ، وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعْلَى)

« فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ » تصريح بالمطلوب ، إثر تمهيد المقدمات . والفاء فصيحة . أى إذا كان الأمر كما ذكر ، من كونهما ساحرين ، يريدان بكم ما ذكر من الإخراج ، والإذهاب ، فأزعموا كيدكم واجملوه مجماً عليه ، بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم . أفاده أبو السعود . وقوله تعالى « ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا » أى مصطفين ، ليكون أهيب في صدور الرائيين « وَقَدْ أَفْلَحَ » أى فاز بالإنعامات العظيمة من فرعون وملائته « الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعْلَى » أى علا وغلب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ)

[٦٦] (قَالَ بَلْ أَلْقُوا ، فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ)

« قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ * قَالَ بَلْ أَلْقُوا »

فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيَّهُمْ « أَى التى ألقوها » مُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُمْ تَسْمَعُوا
أَى حَيَاتِ تَسْمَعُوا عَلَى بَطُونِهَا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى)

[٦٨] (قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى)

[٦٩] (وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ، إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ ،

وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى)

« فَأَوْجَسَ » أَى أَحْسَ « فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى » وذلك لما جُيِّلَ عَلَيْهِ الإنسان
من النفرة من الحيات . أو خاف من توهم الخلق المعارضة ، بأن لهم من حبالهم وعصيمهم حيات .
كما أن له من عصاه حية « قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ
مَا صَنَعُوا » أَى تلتقطه بفمها « إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ » فى مقابلة آية ربانية
« وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى » أَى لا يفوز بطلوبه ، أَى مكانِ جَاءَ لدفع الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى)

[٧١] (قَالَ ءَامَنَّا لَهُ وَقَبِلَ أَنْ يَأْذَنَ لَكُمْ ، إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي

عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ ، فَلَا قَطْمَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفِ

وَلَا صَلْبِنَّاكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلِتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى)

« فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا » أَى ألقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا فألقى السحرة سُجَّدًا ،

لما تيقنوا أن ذلك ليس من باب السحر ، وإنما هى آية ربانية « قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ

وَمُوسَى قَالَ « أَي فرعون » « ءَأَمَنْتُمْ لَهُ وَقَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ وَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ » أي فاتفقتم معه ليكون لكم الملك « فَلَا قِطْمَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ » أي من جانبين متخالفين « وَلَا صَلَّيْنَاكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ » أي التي هي أقوى الأخشاب وأخشنها « وَلَتَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى » يعني أنكم إنما آمنتم برب موسى خوفاً من شدة عذابه ، أو من تخليده في العذاب (وَلَتَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى) فإن رب موسى لم يقطع من أحد يده ورجله من خلاف ، ولم يصلبه في جدوع النخل ، ولم يبقه مصلوباً ، قاله المهامبي . وضعفه الزمخشري بأن فرعون يريد نفسه وموسى عليه السلام ، بدليل قوله (ءَأَمَنْتُمْ لَهُ) أي لموسى . واللام مع الإيمان ، في كتاب الله ، لغير الله تعالى كقوله تعالى (يَوْمَئِذٍ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ لَمَّا كَانُوا فِي سَعْيٍ مَّكْرًا) وقصده إظهار اقتداره وبطشه ، وما ضرى به من تعذيب الناس بأنواع العذاب . وتوضيح موسى عليه السلام واستضعافه مع الهزء به ، لأن موسى لم يكن قط من التعذيب في شيء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (قَالُوا لَنْ نُؤْمِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ، فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)

« قَالُوا لَنْ نُؤْمِرَكَ » أي نختارك بالإيمان والاتباع « عَلَىٰ مَا جَاءَنَا » أي من الله على يد موسى « مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا » أي وعلى الذي خلقنا . واختيار هَذَا الوصف للإشعار بعلّة الحكم . فإن خالقيته تعالى لهم ، وكون فرعون من جملة مخلوقاته ، مما يوجب عدم إيثارهم له عليه ، سبحانه وتعالى . وهذا جواب منهم لتوبيخ فرعون بقوله (ءَأَمَنْتُمْ لَهُ) وقيل هو قسم محذوف الجواب « فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ » أي اصنع ما أنت صانعه . وهذا جواب عن تهديده بقوله (لَا قِطْمَنَ) الخ « إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أي فيها وهي لا بقاء لها ، ولا سلطان لك بعدها . وإنما البغية الآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ،
وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

« إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ
وَأَبْقَى » أى ثواباً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (إِنَّهُ وَمَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ)
« إِنَّهُ وَمَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا » أى فينقض عذابه
« وَلَا يَحْيَىٰ » أى حياة طيبة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَمَنْ يَأْتِهِ مَوْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ)
« وَمَنْ يَأْتِهِ مَوْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ » أى
المنازل الرفيعة بسبب إيمانهم وعملهم الصالح .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ)
« جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ »
أى تطهر من دنس الكفر والمعاصي ، بما ذكر من الإيمان والأعمال الصالحة .

لطائف :

من (الكشاف) و(حواشيه للناصر) .

الأولى - في تخيير السحرة بين إلقاء موسى وإلقائهم ، استعمال أدب حسن معه ، وتواضع له

وخفض جناح . وتنبه على إعطائهم النصفه من أنفسهم . وكان الله عز وعلا لهممهم ذلك ،
وعلم موسى - صلوات الله عليه - اختيار القاهم ، أولاً ، مع ما فيه من مقابلة أدب بأدب ،
حتى يبرزوا ما معهم من مكاييد السحر ، ويستنفدوا أقصى طرقهم ومجهودهم . فإذا فعلوا أظهر
الله سلطانه ، وقذف بالحق على الباطل فدمغه ، وسلط المعجزة على السحر فحقته ، وكانت آية
نيرة للناظرين . وعبرة بيئة للمعتبرين . وقبل ذلك تأدبوا معه بقولهم (فَاجْمَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ
مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ) ففوضوا ضرب الموعد إليه . وكما ألهم الله عز وجل موسى ههنا ، أن
يجعلهم مبتدئين بما معهم ، ليكون إلقاء العصا ، بعد ، قذفاً بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو
زاهق ، كذلك ألهمه من الأول ، أن يجعل موعدهم يوم زينتهم وعيدهم ، ليكون الحق أبلغ
على رؤوس الأشهاد ، فيكون أفضح لسكيدهم وأهتك لستر حرمهم .

الثانية - جوز في إشار قوله تعالى (مَا فِي يَمِينِكَ) على (عَصَاكَ) وجهان : أحدهما -
أن يكون تعظيماً لها . أى لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة . فإن في يمينك شيئاً أعظم
منها كلها . وهذه على كثرتها أقل شيء وأزره عنده . فألقه يتلقفها بإذن الله ويمحقها .
وثانيهما - أن يكون تصغيراً لها أى لا تبال بكثرة جبالهم وعصيمهم . وألق العويد الفرد
الصغير الجرم الذى في يمينك . فإنه بقدرة الله يتلقفها على وحدته وكثرتها ، وصغره وعظمتها .
وإنما المقصود بتحقيرها في جنب القدرة ، تحقير كيد السحرة بطريق الأولى . لأنها إذا كانت
أعظم منةً وهى حقيرة في جانب قدرة الله تعالى ، فما الظن بكيدهم وقد تلقفته هذه
الحقيرة الضئيلة ؟

ولأصحاب البلاغة طريق في علو المدح بتعظيم جيش عدو المدوح ، ليلزم من ذلك تعظيم
جيش المدوح وقد قهره واستولى عليه . فصغر الله أمر العصا ، ليلزم منه كيد السحرة
الداحض بها في طرفه عين .

واعلم أنه لا بد من نكتة تناسب الأمرين - التعظيم والتحقير - وتلك ، والله أعلم ،

هي إرادة المذكور مبهما . لأن (مَا فِي يَمِينِكَ) أبهم من (عَصَاكَ) وللعرب مذهب في التنكير والإبهام ، والإجمال ، تسلكه مرة لتحقير شأن ما أبهمته ، وأنه عند الناطق به أهون من أن يخصه ويوضحه . ومرة لتعظيم شأنه ، وليؤذن أنه من غفاية التكلم والسماع بمكان ، يفنى فيه الرمز والإشارة . فهذا هو الوجه في إسماعاده بهما جميعاً .

ثم قال الناصر : وعندي في الآية وجه سوى قصد التعظيم والتحقير . والله أعلم . وهو ؛ أن موسى عليه السلام ، أول ما علم أن العصا آية من الله تعالى ، عندما سأله عنها بقوله تعالى (وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى) ثم أظهر له تعالى آيتها ، فلما دخل وقت الحاجة إلى ظهور الآية منها ، قال تعالى (وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ) ليتيقظ بهذه الصيغة للوقت الذي قال الله تعالى له (وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ) وقد أظهر له آيتها ، فيكون ذلك تنبيهاً له وتأنيساً ، حيث خوطب بما عهد أن يخاطب به وقت ظهور آيتها . وذلك مقام يناسب التأنيس والتثبيت . ألا ترى إلى قوله تعالى (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى) ؟ انتهى .

ولأبي حيان نكتة أخرى . وهي ما في اليمين من الإشعار باليمين والبركة . ولا يقال جاء في سورة الأعراف (أَلْقِ عَصَاكَ) والقصة واحدة . لأنه يجاب بأنه مانع من رعاية هذه النكتة فيما وقع هنا ، وحكاية ما جاء بالمعنى .

هذا وقال الشهاب الخفاجي : فيما ذكره نظر لأنه إنما يتم إذا كان الخطاب بلفظ عربيّ أو مرادفٍ له ، يجري فيه ما يجري فيه . والأول خلاف الواقع . والثاني دونه خرق القتاد ، فتأمل .

أقول إنما استبعد الثاني ، لتوهم أن لا بلاغة ولا نكات إلا في اللغة العربية . مع أن الأمر ليس كذلك . وحينئذ فيتمين الثاني . وهو ظاهر . وبه تستعاد تلك اللطائف . ثم أشار تعالى إلى عنايته بموسى وقومه ، من إنجائهم وإهلاك عدوهم ، وقد طوى هنا ما فصل في آيات آخر ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ
يَبْسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ)

«وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي» أى سر بهم من مصر ليلاً «فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبْسًا» أى يابساً . فضرب موسى بعصاه البحر فانفلق وجاوزه إلى ساحله «لَا تَخَفْ دَرَكًا» أى لا تخاف من فرعون وجنوده أن يدركوك من ورائك «وَلَا تَخْشَىٰ» أى غرقاً من بين يديك ، ووحلاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ)

[٧٩] (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ)

«فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ» لأنه ندم على الإذن بتسريحهم من مصر ، وأنهم قهروه على قتلهم كما قال^(١) (إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ) فتبعهم ومعه جنوده حتى لحقهم ، ونزلوا في الطريق الذى سلكوه . ففاجأهم الموج كما قال تعالى «فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ» أى علاهم منه وغمرهم ، ما لا يحاط بهوله «وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ» أى أوردهم الهلاك ، بعتوه وعناده في الدنيا والآخرة . وما هداهم سبيل الرشاد .

ثم ذكر تعالى نعمه على بنى إسرائيل ومننه الكبرى ، وما وصاهم من المحافظة على شكرها ، وحذرهم من التعرض لغضبه بكفرها ، بقوله سبحانه :

(١) [٢٦ / الشعراء / ٥٥ و٥٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (يَبْنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ)

[٨١] (كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي، وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ)

« يَبْنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ » وهو فرعون وقومه . فقد كانوا يسمونكم سوء العذاب . يذبجون أبناءكم ويستحيون نساءكم . وذلك بأن أقر أعينكم منهم ، بإغراقهم ، وأنتم تنظرون . « وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ » أى بمناجاة موسى وإتزال التوراة عليه . واليهود السامرية تزعم أن هذا الجبل فى (نابلس) ويسمونه (جبل الطور) ويذكر فى الجغرافيا بلفظ (عيبال) ولهم عيد سنوى فيه يصعدون إليه ، ويقربون فيه القرابين . والله أعلم .

قال الزمخشري : وإنما عدى المواعدة إليهم ، لأنها لا يستهم واتصلت بهم ، حيث كانت لنبيهم ونبيائهم . وإليهم رجعت منافعها التى قام بهم دينهم وشرعهم ، وفيما أفاض عليهم من سائر نعمه وأرزاقه .

و (جانب) مفعول فيه ، أو مفعول به على الانساع . أو بتقدير مضاف . أى إتيان جانب . « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ » أى من لذائذه . فإن المن كالعسل . والسلوى من الطيور الجيـد لهما « وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ » أى فيما رزقناكم ، بأن يتمدى فيه حدود الله ، ويخالف ما أمر به « فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ » أى هلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَإِنِّي لَنَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ)

« وَإِنِّي لَنَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ » أى تاب عما كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق ، وعمل صالحا بجوارحه، ثم اهتدى ، أى استقام وثبت على الهدى المذكور . وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح . ونحوه قوله تعالى^(١) (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا) وفى الآية ترغيب لمن وقع فى وهدة الطغيان ، ببيان المخرج له منه ، كى لا يياس . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ)

« وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ » أى أى شىء عجّل بك عنهم ، على سبيل الإنكار ، وكان قد مضى مع النقباء الذين اختارهم من قومه إلى الطور، على الموعد المضروب، ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه ورضاه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَمْرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ)

« قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَمْرِي » أى قادمون ينزلون بالطور ، وإنما سبقتهم بما ظننت أنه خير . ولذا قال « وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ » أى عنى ، بمسارعتى إلى الامتثال بأمرك . واعتنائى بالوفاء بمهدك . وزيادة (رَبِّ) لمزيد الضراعة والابتهال ، رغبةً فى قبول العذر . أفاده أبو السعود .

(١) [٤١ / فصلت / ٣٠] و [٤٦ / الأحقاف / ١٣] .

فإن قيل: كان مقتضى جواب السؤال من موسى أن يقول (طلبُ زيادةِ رضاك أو الشوقُ إلى كلامك) فالجوابُ . أن هذا من الغفلة عن سرِّ الإنكار . وذلك لأن الإنكار بالذات إنما هو للبعد والانفصال عنهم . فهو منصبٌّ على التقيّد . كما عرف في أمثاله . فالسؤال في المعنى عن الانفصال الذي يتضمّنه (أمجلك) المتعمد به (من) . وإنكار العجلة لأنها وسيلة له . فالجواب (هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَىٰ آثَرِي) . وقوله (وَعَجِجْتُ) الخ تميم . وقيل الجواب إنما هو قوله (وَعَجِجْتُ) الخ ، وما قبله تمهيد له .

وقال الناصر: إنما أراد الله تعالى بسؤاله عن سبب العجلة، وهو أعلم، أن يعلم موسى أدب السفر. وهو أنه ينبغي تأخُّرُ رئيس القوم عنهم في المسير، ليكون نظره محيطاً بطائفتهم، وناظراً فيهم، ومهيماً عليهم . وهذا المعنى لا يحصل في تقدمه عليهم ، ألا ترى الله عز وجل كيف علم هذا الأدب، لوطاً، فقال^(١) (وَأَتَّبِعْ أَوْلَادَهُمْ) فأمره أن يكون أخيرهم . على أن موسى عليه السلام إنما أغفل هذا الأمر مبادرة إلى رضاء الله عز وجل ، ومسارة إلى الميعاد . وذلك شأن الموعود بما يسره ، يود لو ركب إليه أجنحة الطير . ولا أسراً من مواعدة الله تعالى له ﷺ . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ)

« قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ » أى ابتليناهم بعد ذهابك للمناجاة « وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ » يعنى اليهودى الذى وسوس لهم أن يعبدوا عجلاً يتخذوه إلهاً ، لما طالت عليهم غيبة موسى ويئسوا من رجوعه . و (السامرى) فى لغة العرب ، بمعنى اليهودى . وقد قال بالظن ، من ادعى تسميته أو حاول تعيينه . وأما الطائفة السامرية الآن فهم فئة من اليهود فى (نابلس) قليلة العدد تحالف بقية اليهود فى جلّ عاداتها .

(١) [١٥ / الحجر / ٦٥] .

وقد تضمنت هذه الجملة - أعنى إخباره تعالى لموسى بالفتنة - الأمر - برجوعه لقومه ، وإصلاحه مافسد من حالهم ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ، قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا ، أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوعِدِي)

« فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا » أى حزينا « قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا » أى بإزالة التوراة على ، ورجوعى بها إليكم « أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ » أى زمان الإيجاز ، أو مجيئى « أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوعِدِي » أى وعدمكم إياى بالثبات على ما أمرتكم به إلى أن أرجع من الميقات .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أُوزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ)

[٨٨] (فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَذَسَىٰ)

« قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا » قرئ بالحركات الثلاث على الميم .

قال الزمخشري : أى ما أخلفنا موعدك ، بأن ملكنا أمرنا . أى لو ملكنا أمرنا ، وخليتنا وأوراءنا ، لما أخلفناه . ولكن غلبنا من جهة السامري وكيد « وَ لَكِنَّا حَمَلْنَا » بفتح الحاء مخففاً ، وبضمها وكسر الميم مشدداً « أُوزَارًا » أى أثقالاً وأحمالاً « مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ »

أى من حلى القبط ، قوم فرعون ، وهو حلى نساءهم « فَقَدَفْنَاهَا » أى فى النار لسببها « فَكَذَلِكَ أَلْمَى السَّامِرِيُّ » أى كان القاطن « فَأَخْرَجَ لَهُمْ » أى من تلك الحلى المذابة « عِجْلاً جَسَداً لَهُ وُخُورٌ » أى صوت عجل . وقد قيل : إنه صار حياً ، وخار كما يخور العجل . وقيل : لم تحلّه الحياة وإنما جعل فيه منافذ ومخارج ، بحيث تدخل فيها الرياح فيخرج صوت يشبه صوت العجل . أفاده الرازى .

وقوله « فَقَالُوا » أى السامريُّ ومن افتتنوا به « هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَانْسَى » أى غفل عنه وذهب يطلبه فى الطور . ثم أنكر تعالى على من ضل بهذا العجل وأضل ، مسفهاً ، لهم فيما أقدموا عليه ، مما لا يشبهه بطلانه على أحد ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٩] (أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا)

« أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ » أى العجل « إِلَيْهِمْ قَوْلًا » أى لا يرد لهم جواباً « وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا » أى دفع ضرر ولا جلب نفع ، أى فكيف يتخذ إلهاً ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يُقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ

الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي)

« وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ » أى قبل رجوع موسى إليهم « يُقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ

بِهِ » أى ضللتهم بعبادته « وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي » فى عبادته

سبحانه ، ونبذ العجل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩١] (قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ)

[٩٢] (قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا)

[٩٣] (أَلَّا تَتَّبِعَنِ ، أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي)

« قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ * قَالَ « أَى موسى » يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ « أَى فى الغضب لله ، وشدة الزجر عن الكفر . و (لا) مزيدة . أو المعنى ما حملك على أن لا تتبعنى ، بحمل النقيض على النقيض . فإن المنع عن الشيء مستلزم للحمل على مقابله . أو ما منعك أن تلحقنى وتخبرنى بضلالهم ، فتكون مفارقتك مزجرة لهم « أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي » وهو ما أمره به من أن يخلفه فى قومه ، ويصلح ما يراه فاسداً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (قَالَ يَبْنَومٌ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ، إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ

فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي)

« قَالَ « أَى هرون » يَبْنَومٌ « بكسر الميم وفتحها . أراد (أى) وذكرها أعطف لقلبه « لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي » أَى بشعره . وكان قبض عليهما يجره إليه من شدة غضبه : « إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ » أَى بتركهم لا راعى لهم « وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي » أى لم تراعه فى الاستخلاف والوجود بين ظهرانيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَمِيرِيُّ)

« قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَمِيرِيُّ » أى ثم أقبل على السامرى وقال له منكراً : ما شأنك

فما صنعت ؟ وما دعاك إليه ؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَمْرِ الرَّسُولِ
فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلْتِ لِي نَفْسِي)

[٩٧] (قَالَ فَأَذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ، وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا
لَنْ نُخْلِفَهُ ، وَأَنْظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ، لَنْهَجِرَ قَنَهُ
ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا)

« قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ » أي فطنت لما لم يقطنوا له « فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ
أَمْرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا » أي في الحلّى المذاب حتى حَيَّ « وَكَذَلِكَ سَوَّلْتِ لِي نَفْسِي » أي
حسنته وزينته « قَالَ فَأَذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ » أي لعذابك
« مَوْعِدًا لَنْ نُخْلِفَهُ وَأَنْظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنْهَجِرَ قَنَهُ وَثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ
فِي الْيَمِّ نَسْفًا » أي لنطيرنه رماداً في البحر ، بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر .

تنبهات

الأول - اعلم أن هرون عليه السلام ، سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه . لأنه زجرهم
عن الباطل ، أولاً بقوله (إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ) ثم دعاهم لمعرفة الله تعالى ثانياً بقوله (وَإِنَّ
رَبَّكُمْ الرَّحْمَنُ) ثم دعاهم ثالثاً إلى معرفة النبوة بقوله تعالى (فَاتَّبِعُونِي) ثم دعاهم إلى
الشرائع رابعاً بقوله (وَأَطِيعُوا أَمْرِي) وهذا هو الترتيب الجيد . لأنه لا بد قبل كل شيء
في إمطة الأذى عن الطريق ، وهو إزالة الشبهات . ثم معرفة الله تعالى ، فإنها هي الأصل .
ثم النبوة ثم الشريعة . فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه . أفادة الرازي .
وقد برأ الله تعالى بهذه الآيات البينات ، هرون عليه السلام مما افتراه عليه كتبه التوراة ،

من أنه هو السامريّ الذي اتخذ العجل وأمر بعبادته ، كما هو موجود عندهم . وهو من أعظم الفرى ، بلا امترا .

الثانى - عامة المفسرين قالوا : المراد بالرسول في قوله تعالى (فَكَبَّضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ) هو جبريل عليه السلام . وأراد بأثره ، التراب الذى أخذه من موضع حافر دابته . ثم اختلفوا : أن السامريّ متى رآه ؟ فقيل : إنما رآه يوم فلق البحر . وقيل : وقت ذهابه بموسى إلى الطور .

واختلفوا أيضاً في : أن السامريّ كيف اختص برؤية جبريل عليه السلام ، ومعرفته من بين سائر الناس ؟ فقيل إنما عرفه لأنه رآه في صغره ، وحفظه من قتل آل فرعون له ، وكان ممن رباه . وكل هذا ليس عليه إثارة من علم ولا يدل عليه التنزيل الكريم . ولذا قال أبو مسلم الأصفهانيّ : ليس في القرآن تصريح بهذا الذى ذكره المفسرون . فههنا وجه آخر وهو : أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام . وبأثره سنته ورسمه الذى أمر به ، فقد يقول الرجل : فلان يقفو أثر فلان ويقبض أثره ، إذا كان يمثل رسمه . والتقدير ، أن موسى عليه السلام لما أقبل على السامريّ باللوم ، والمسألة عن الأمر الذى دعاه إلى إضلال القوم في باب العجل ، فقال (بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ) أى عرفت أن الذى أنتم عليه ليس بحق ، وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول ، أى شيئاً من سنتك ودينك . فقدفته ، أى طرحته . فعمد ذلك أعلمه موسى عليه السلام بما له من العذاب في الدنيا والآخرة . وإنما أورد بلفظ الإخبار عن غائب ، كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له : ما يقول الأمير في كذا ؟ وبماذا يأمر الأمير ؟

وأما دعاؤه موسى عليه السلام رسولاً ، مع جحده وكفره ، فعلى مثل مذهب من حكي الله تعالى عنه قوله ^(١) (يَا سَامِرِيُّ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الدِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) وإن لم يؤمنوا بالإيزال . انتهى .

(١) [١٥ / الحجر / ٦] .

قال الرازي : ما ذكره أبو مسلم أقرب إلى التحقيق مما ذكره المفسرون ، لوجوه :
أحدها - أن جبريل عليه السلام ليس بمشهور بامم الرسول . ولم يجر له فيما تقدم ذكره ،
حتى تجعل لام التعريف إشارة إليه . فأطلاق لفظ (الرسول) لإرادة جبريل عليه السلام ،
كأنه تسكيف بعلم الغيب .

وثانيها - أنه لا بد فيه من الإضمار . وهو قبضة من أثر حافر فرس الرسول . والإضمار
خلاف الأصل .

وثالثها - أنه لا بد من التعسف في بيان أن السامريّ كيف اختص من بين جميع الناس
برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته ؟ ثم كيف عرف أن لثراب حافر فرسه هذا الأثر؟ والذي
ذكره من أن جبريل عليه السلام هو الذي رياه ، فبعيد . لأن السامريّ، إن عرف جبريل
حال كمال عقله ، عرف قطعاً أن موسى عليه السلام نبي صادق . فكيف يحاول الإضلال ؟
وإن كان ماعرفه حال البلوغ ، فأى منفعة لكون جبريل عليه السلام مريباً له حال الطفولية ،
في حصول تلك المعرفة ؟ انتهى .

التنبيه الثالث في قوله تعالى (لَأَمْسَأَسَ) وجوه :

أحدها - إني لا أمسُّ ولا أمسُّ .

وثانيها - المراد المنع من أن يخاطب أحداً أو يخاطبه أحد ، عقوبة له .

ثالثها - ما ذكره أبو مسلم من أنه يجوز في حمله (ما أريد مسى النساء) فيكون من
تعذيب الله إياه انقطاع نسله . فلا يكون له ولد يؤنسه ، فيخليه الله تعالى من زينتي الدنيا
اللتين ذكرها بقوله^(١) (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أي لأن المسّ يكنى به عن
النكاح كما في آية^(٢) (مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ) والله أعلم .

(١) [١٨ / السكف / ٤٦] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣٧] .

ولما فرغ موسى عليه السلام من إبطال مادعا إليه السامريّ ، عاد إلى بيان الدين الحق ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا)
 « إِنَّمَا إِلَهُكُمُ » أى المستحق للعبادة والتعظيم « اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا » أى أحاط علمه كل شيء . ثم أشار تعالى إلى فضله ، فيما قصه على خاتم رسله صلوات الله عليه ، من أنباء الأنبياء ، تنويفاً بشأنه ، وزيادة في معجزاته ، وتكثيراً للاعتبار والاستبصار في آياته ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ، وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا)

« كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ، وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا » أى كتاباً عظيماً جامعاً لكل كمال ، وسمى القرآن (ذِكْرًا) لما فيه من ذكر ما يحتاج إلى الناس من أمر دينهم ودنياهم ، ومن ذكر آلاء الله ونعمائه . ففيه التذكير والمواعظ . ولما فيه من الذكر والشرف له صلوات الله عليه ولقومه .

قال الرازى : وقد سمي تعالى كل كتبه (ذِكْرًا) فقال ^(١) (فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ) .
 ثم ، كما بين تعالى نعمته بذلك ، بين شدة الوعيد لمن أعرض عنه ولم يؤمن به ، بقوله :

(١) [١٦ / النحل / ٤٣] .

القول في تأويل قوله تعالى:

[١٠٠] (مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا)

[١٠١] (خَالِدِينَ فِيهِ ، وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا)

« مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا » أى إنمّا . يعنى عقوبة ثقيلة . شبهت بالحمل الثقيل لتقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها « خَالِدِينَ فِيهِ » أى فى احتمالها المستمر « وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا » . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ، وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا)

[١٠٣] (يَتَخَفَتُونَ يَدَيْهِمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا)

« يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ » بدل من يوم القيامة أو منصوب بمحذوف . والنفخ فى الصور تمثيل لبعث الله للناس يوم القيامة بسرعة لا يمتلها إلا نفخة فى بوق^(١) (فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ فى الصور . وليس علينا أن نعلم ما هى حقيقة ذلك الصور . والبحث وراء هذا ، عبث لا يسوغ المسلم . أفاده بعض المحققين .

« وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ » أى نسوقهم إلى جهنم « يَوْمَئِذٍ زُرْقًا » أى زرق الوجوه . الزرقة تقرب من السواد . فهو بمعنى آية^(٢) (وَتَسْوَدُ وُجُوهٌُ) .

وقال أبو مسلم : المراد بهذه الزرقة شخوص أبصارهم . والأزرق شاخص ، لأنه لضعف بصره ، يكون محققاً نحو الشيء يريد أن يتبينه . وهذه حال الخائف المتوقع لما يكره . وهو كقوله تعالى^(٣) (إِنَّمَا يُوَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) نقله الرازى . والأول أظهر .

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٨] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٠٦] .

(٣) [١٤ / إبراهيم / ٤٢] .

« يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ » أي يتسارون من الرعب والهول، أو من الضعف، قائلين « إِنْ لَبِثْتُمْ » أي في الدنيا « إِلَّا عَشْرًا » أي عشر ليال. قال الزمخشري: يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا، إما لما يماينون من الشدائد التي تذكرهم أيام النعمة والسرور، فيتأسفون عليها ويصفونها بالقصر. لأن أيام السرور قصار. وإما لأنها ذهبت عنهم وتقصت. والذاهب، وإن طالت مدته، قصير بالانتهاء. ومنه توقيع عبد الله بن المعتز تحت: أطال الله بقاءك (كفي بالانتهاء قصرًا). وإما لاستطانتهم الآخرة، وأنها أبد سرمد، يستقصرون إليها عمر الدنيا، ويتقال لبث أهلها فيها، بالقياس إلى لبثهم في الآخرة. وقد استرجح الله قول من يكون أشد تقا لأمنهم، في قوله تعالى:

القول في تأويل قوله تعالى:

[١٠٤] (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا)
 « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً » أي أعد لهم رأياً « إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا » ونحوه قوله تعالى^(١) (قَلَّ كَمَ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ) انتهى .

قال أبو السعود: ونسبة هذا القول إلى أمثلهم، استرجاع منه تعالى له، لكن لا لكونه أقرب إلى الصدق، بل لكونه أدل على شدة الهول. أي: ولكونه منتهى الأعداد القليلة. وكذلك لبثهم بالنسبة إلى الخلود السرمدي، وإلى تقضى الغائب الذي كأن لم يكن. ولا ينافي هذا ماجاء في آية^(٢) (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ * يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ) لأن المراد بالساعة الحصة من الزمان القليل، فتصدق باليوم. كما أن المراد باليوم مطلق الوقت. ولذلك نكر، تقيلاً له وتحقيراً.

(١) [٢٣ / المؤمنون / ١١٢ و ١١٣] . (٢) [٣٠ / الروم / ٥٥] .

قال الشهاب : ليس المراد بحكاية قول من قال (عَشْرًا) أو (يَوْمًا) أو (سَاعَةً) حقيقة اختلافهم في مدة اللبث ، ولا الشك في تعيينه . بل المراد أنه لسرعة زواله ، عبّر عن قلته بما ذكر . فتنن في الحكاية ، وأتى في كل مقام بما يليق به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا)

[١٠٦] (فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا)

[١٠٧] (لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا)

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ » أى هل تبقى يوم القيامة أو تزول « فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا » أى يزيلها عن مقارّها . فيسيرها مقذوفة في الفضاء . وقد تمرّ على الرؤوس مرّ السحاب . حتى تتساوى مع سطح الأرض . كما قال « فَيَذَرُهَا » أى فيذر مقارّها ومراكرها . أو الأرض المدلول عليها بقريئة الحال « قَاعًا » أى سهلًا مستويًا « صَفْصَفًا » أى أملس « لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا » أى نتوءًا يسيرًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ

فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا)

« يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ » أى يُجيبون الداعى إلى المحشر ، فيمقلّبون من كل صوب إليه « لَا عِوَجَ لَهُ » أى لا يعوج له مدعوّ ، ولا ينحرف عنه . بل يستقون إليه ، متبعين لصوته ، سائرين بسيره .

في شروح (الكشاف) : هذا كما يقال (لا عصيان له) أى لا يعصى . و (لا ظلم له) أى لا يظلم . وضمير (له) للداعى . وقيل : للمصدر . أى لا عوج لذلك الاتباع « وَخَشَعَتِ

أَلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ « أَى انخفضت لهيبته ولمسول الفزع » « فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا » أَى صوتًا خفيًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا)

« يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا » أَى قبيل قوله . والمعنى : يومئذ لا يستطيع أحد أن يشفع لأحد ، إلا إذا أذن الله له ، ولا يأذن إلا لمن علم أنه سيجاب .

قال بعض المحققين : وإنما يكون الكلام ضرباً من التكريم ، لمن يأذن الله له به ، يختص به من يشاء . ولا أثر له فيما أراد الله البتة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا)

« يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا » أَى بمعلوماته ، أو بذاته العلية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ، وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا)

« وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ » أَى ذات وخضعت خضوع العناة ، أَى الأسارى . لأنها فى أسر مملكته وذل قهره وقدرته . لا تحيا ولا تقوم إلا به .

ولما كانت الوجوه يومئذ ، منها الظالمة لنفسها ومنها الصالحة ، أشار إلى ما يجزى به الكل ، بقوله سبحانه « وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا » أَى خسر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا)

« وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا » أى نقص ثواب « وَلَا هَضْمًا » أى ولا كسرًا منه ، بعدم توفيقه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ

أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا)

« وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ » أى بعبارات شتى ، تصريحاً وتلويحاً ، وضروب أمثال ، وإقامة براهين « لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » أى الكفر والمعاصي بالفعل « أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا » أى اتعاضاً واعتباراً ، يؤول بهم إلى التقوى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ

إِلَيْكَ وَحْيُهُ ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)

« فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ » أى تنأهى فى العلو والعظمة ، بحيث لا يقدر قدره ، ولا يقدر أمره فى ملكه الذى يعلم كل شىء ، ويصرفه بمقتضى إرادته وقدرته . وفى عدله الذى يوفى كل أحد حقه بموجب حكمته « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ » أى: بل أنصت . فإذا فرغ الملك من قراءته فاقراه بعده . وقد كان رسول الله ﷺ إذا لقنه جبريل الوحي ، يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل كلمة ، لسكمال اعتنائه بالتلقى والحفظ . فأرشد إلى أن لا يساوقه فى قراءته ، وأن يتأنى عليه ربما يسمعه ويفهمه . ثم ليقبل عليه

بالحفظ بعد ذلك. ونحوه قوله تعالى (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ * فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) ثم أمره تعالى باستفاضة العلم واستزادته منه بقوله « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » أى سله زيادة العلم. فإن مدده غير متناهٍ .

وهذا - كما قال الزمخشري - متضمن للتواضع لله تعالى والشكر له ، عندما علم من ترتيب التعلم . أى علمتى يارب لطيفة فى باب التعلم ، وأدباً جميلاً ما كان عندى، فزدنى علماً إلى علم. فإن لك فى كل شىء حكمة وعلماً . قيل : ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة فى شىء إلا فى العلم . ثم أشار تعالى إلى أخذه العهد على بنى آدم ، من أتباعهم كل هدى يأتهم منه سبحانه ، وترتب الفوز عليه . وإلى أن الإعراض عنه من وسوسة الشيطان، العدو لهم ولأبيهم قبلهم . وترتب الشقاء عليه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١٥] (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا)

« وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ » أى من قبل هذا الزمان ، أن لا يقرب من الشجرة « فَنَسِيَ » أى العهد « وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » أى تصمياً فى حفظه . إذ لو كان كذلك ، لما أزله الشيطان ولما استطاع أن يغرره . كما بيّنه الله تعالى بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ)

[١١٧] (فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ)

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَا آدَمُ

(١) [٧٥ / القيامة / ١٦-١٩] .

إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى « أى بالابتلاء . وإسناد الشقاء إليه خاصة ، لأصالته في الأمور ، واستلزام شقائه بشقائها . فاختصر الكلام لذلك ، مع المحافظة على الفاصلة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ)

[١١٩] (وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ)

« إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ » أى لا تتصون من حرّ الشمس .

قال أبو السعود: هذا تعليل لما يُوجبه النهى . فإن اجتماع أسباب الراحة فيها، مما يوجب المبالغة في الاهتمام بتحصيل مبادئ البقاء فيها . والجد في الانتهاء عما يؤدي إلى الخروج عنها . والعدول عن التصريح بأن له عليه السلام فيها تفعماً بفنون النعم . من المآكل والمشرب ، وتمتعاً بأصناف الملابس البهية والمسكن المرضية ، مع أن فيه من الترغيب في البقاء فيها ، ما لا يخفى . إلى ما ذكر من نفي نقائضها التي هي الجوع والعطش والعري والضحو ، لتذكير تلك الأمور المنكرة والتنبيه على ما فيها من أنواع الشقوة التي حذر عنها، ليمالغ في التحامى عن السبب المؤدى إليها . انتهى .

لطيفة :

قال الناصر : في الآية سر بديع من البلاغة ، يسمى قطع النظير عن النظير . وذلك أنه قطع الظماً عن الجوع ، والضحو عن الكسوة ، مع ما بينهما من التناسب . والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها : ولو قرن كلاً بشكله لتوهم المعدودات نعمة واحدة .

وقد رمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديماً وحديثاً ، فقال الكندي الأول^(١) :
 كَمَا نَى لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلدَّيَّةِ ولم أَتَبَطَّنْ كَاعِيًا ذَاتَ خَلْخَالِ
 ولم أسبأ الزُّقَّ الرَوِيَّ ولم أَقُلْ خَلِيلِي : كُرِّي كُرَّةً بَمَدِّ إِجْفَالِ
 فقطع ركوب الجواد عن قوله (خليلي كرى كرة) وقطع تبطن السكعب عن ترشف
 الكاس ، مع التناسب . وغرضه أن يعدد ملاذّه ومفاخره ويكثرها .

على أن في هذه الآية سرّاً لذلك ، زائداً على ما ذكر ، وهو قصد تفاسد الفواصل .
 ولو قرن الظماً بالجوع فقيل : إن لك أن لا تجوع فيها ولا تظماً ، لا تنتثر سلك رؤوس الآي .
 وأحسن به منتظماً . انتهى . وهذا السرّ الذي سماه (قطع النظير عن النظير) يسمى بالوصل
 الخفيّ . ومما قيل في وجه القطع : أن فيه التنبيه على أن الأولين ، أعنى الشبع والكسوة
 أصلان . وأن الأخيرين متممان . فالامتنان على هذا أظهر . ولذا فرّق بين القرينتين . فقيل
 (إن لك) و (أنك) وأيضاً روعي مناسبة الشبع والكسوة . لأن الأول يكسو العظام
 لحما . وأما الظماً والضحي فمن وادٍ واحد . وقيل : إن الغرض تعديد هذه النعم . ولو قرن
 كل بما يشا كله ، لتوهم المقرنونان نعمة واحدة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ

وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى)

[١٢١] (فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ

الْجَنَّةِ ، وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى)

« فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ » أي من أكل

(١) الببتان السابع والثلاثون والثامن والثلاثون من قصيدة امرئ القيس التي مطلعها :

أَلَا عَمَّ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي وهل يَعْمَنُ من كان في العُصْرِ الْخَالِي ؟

منها خلد ولم يمِت « وَمُلْكٍ لَّا يَبْلِيٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْءُ لَهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا » أى يلزقان « مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ » أى فحصل لهما هذا الخبزى ، بدل عزّ الملك المخلد . وهذه الأوراق الفانية ، بدل نفائس الملابس الخالدة « وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ وَ « أى بارتكاب النهى ، وترك العزم فى حفظ العهد « فَنَوَى » أى عن المأمور به . حيث اعترى بقول العدو .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (ثُمَّ أُجْتَبِيَهُ رَبُّهُ وَ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ)

[١٢٣] (قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ)

« ثُمَّ أُجْتَبِيَهُ رَبُّهُ وَ » أى اصطفاه ووقفه للإجابة « فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ » أى بعد قبول توبته « أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا » أى انزلا من الجنة إلى الأرض « بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » أى متعادين .

قال المهايى : فالمرأة عدوة الزوج ، فى الجائنه إلى تحصيل الحرام . والزوج عدوها فى إنفاقه عليها . وإبليس يوقع الفتنة بينهما ، ويدعوها إلى أنواع المفاسد التى لا ترتفع إلا باتباع الأمر السماوى . « فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى » أى من كتاب ورسول . « فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ » أى لا فى الدنيا ولا الآخرة . قال أبو السعود : ووضع الظاهر موضع المضمرة فى قوله (هُدَايَ) مع الإضافة إلى ضميره تعالى ، لتشريفه والمبالغة فى إيجاب اتباعه . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[١٢٥] (قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا)

[١٢٦] (قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسَيْتَهَا ، وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى)

[١٢٧] (وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى)

« وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسَيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى » اعلم أنه لما أخبر سبحانه عن حال من اتبع هداه في معاشه ومعاده ، أخبر عن حال من أعرض عنه ولم يتبعه ، من شقائه في الدنيا والآخرة . وهذا الشقاء بقسميه ، هو نوع من أفانين العذاب اللاحقة لمن تولى عن هدى الله الذي بعث به خاتم أنبيائه ، ولم يقبله ولم يستجب له ، ولم يتعظ به فينجزر عما هو عليه مقيم من خلافه أمر ربه . وفي الآية مسائل :

الأولى - قال الرازي في قوله تعالى (عَن ذِكْرِي) : الذكر يقع على القرآن وعلى سائر كتب الله تعالى . ويحتمل أن يراد به الأدلة . وقال ابن القيم في (مفتاح دار السعادة) : أى عن الذكر الذى أنزلته . و (الذكر) هنا مصدر مضاف إلى الفاعل . ك (قيامى وقراءتى) لا إلى المفعول . وليس المعنى : ومن أعرض عن أن يذكرنى . بل هذا لازم المعنى ومقتضاه من وجه آخر . وأحسن من هذا الوجه أن يقال : الذكر هنا مضاف إضافة الأسماء ، لإضافة

المصادر إلى معمولاتها . والمعنى : ومن أعرض عن كتابي ولم يتبعه ، فإن القرآن يسمى ذكراً . قال تعالى (١) (وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبْرَكٌ أَنْزَلْنَاهُ) وقال تعالى (٢) (ذَلِكَ نَتَلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ) . وقال تعالى (٣) (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) . وقال تعالى (٤) (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ) . وقال تعالى (٥) (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ) ، وعلى هذا إفاضته كإضافة الأسماء الجوامد التي لا يقصد بها إضافة العامل إلى معموله . ونظيره في إضافة اسم الفاعل (٦) (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ) فإن هذه الإضافات لم يقصد بها قصد الفعل المتجدد ، وإنما قصد الوصف الثابت اللازم . ولذلك جرت أوصافاً على أعرف المعارف ، وهو اسم الله تعالى في قوله تعالى (٧) (تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ) الآية .

الثانية - قرئ (ضَنْكًا) بالتنوين على أنه مصدر وصف به ، ولذا لم يؤنث لاستوائه في القبيلين . كما قال ابن مالك :

وَنَعَتُوا بِمَصْدَرٍ كَثِيرًا فَالْتَزَمُوا الْإِفْرَادَ وَالتَّذْكِيرَ

وفي القاموس : الضنك الضيق في كل شيء ، للذكر والأنثى . يقال : ضنك ككرم ، ضنكا وضنكة وضنوكه ، ضاق . وقال السمين : (ضنكا) صفة معيشة . وأصله المصدر فلذلك لم يؤنث . ويقع للمفرد والمثنى والمجموع بلفظ واحد . وقرأ الجمهور (ضنكا) بالتنوين وصلًا ، وإبداله ألفاً وقفًا ، كسائر العربات . وقرأت فرقة (ضنكي) بألف كسكرى . وفي هذه الألف احتمالان : إما أن تكون بدلاً من التنوين ، وإنما أجرى الوصل مجرى الوقف ، وإما أن تكون ألف التأنيت بني المصدر على (فعلى) نحو دعوى .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٥٠] . (٢) [٣ / آل عمران / ٥٨] .

(٣) [٦٨ / القلم / ٥٢] . (٤) [٤١ / فصلت / ٤١] .

(٥) [٣٦ / يس / ١١] . (٦) [٤٠ / غافر / ٣] . (٧) [٤٠ / غافر / ٣ و٢] .

الثالثة - ذكروا في هذه المعيشة الضنك التي للكافر أقوالاً : إنها في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة أو في الدين . والأظهر الأول لمقابلته بالوعيد الأخروي . قال ابن كثير : أى ضنكاً في الدنيا ، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدرة . بل صدره ضيق حرج لضلاله ، وإن تنعم ظاهره ، ولبس ماشاء ، وأكل ماشاء ، وسكن حيث شاء . فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى ، فهو في قلق وحيرة وشك . فلا يزال في ريبه يتردد . فهذا من ضنك المعيشة . انتهى .

وذلك لأن الاعتقاد بالدين الحق واليقين الصحيح لراحة الضمائر والأنفس ، فوق كل الأهواء واللذات والمآرب . فالضنك المعنى بها ، إذن هو الضنك الحيوى والقلق الدينوى ، من اضطراب القلب وعدم سكون النفس إلى الاعتقاد الحق والإيمان بالدين القيم الذى هو دين الإسلام . فكل من لم يؤمن به فهو في ضيق صدر وهموم ومحابس ، لا يجد منها مخرج إلا به ولا يرتاب في ذلك إلا من كبر حسه وناقض وجدانه . فإن دين الإسلام هو دين الفطرة . دين اليسر . دين العقل . دين النور الذى تنشرح به الصدور وتطمئن به القلوب وتشفى به الأنفس من أدوائها ، وتهتدى به من ضلالها وحيرتها ، وتستنير به من ظلماتها . ولذلك سمي هدى ونوراً وشفاء ورحمةً . ألق نظرك على الأديان كلها ، وقابل بينها وبينه ، لتدرك ذلك .

هذه اليهودية ، يرى في اشتراعها من الآصار والأغلال والتكاليف الشاقة في المعيشة الحيوية ما لا يطاق . قيود في المأكل والمشرب . وحجر في المنكح والمبيت والمعاشرة . وضغط على الأنفس بتقسيمها إلى طاهرين يحضرون الاحتفالات ، ونجسين مبعدين لا يلمسون ولا يلمسون . دع عنك خرافات الاعتقادات والافتراء بالأهواء في التشريعات وتشعبها في الأهواء إلى شعب تباين في العبادات .

وهذه النصرانية ، الذى أساسها تعديل الشريعة الموسوية قام رهبانها بعد رفع المسيح ،

ومضى عصر الحواريين . فأطلقوا لاتباعهم كل قيد في اليهودية . وأمرهم بنبذ أحكام التوراة نكايه لليهود . وأخذوا يشرعون للناس ما لا ينطبق على أصل التوراة ولا بمئة عيسى . فإنه عليه السلام قال (ما جئت لأهدم التوراة - بل لأتممه) . فترى ما أحدث من طقوس الكنيسة وتعاليمها ، اعتقاداً وعبادة وسلطة وسيطرة جائرة على العقل والفكر ، وربط الأمور بأيدي الكهنة حلاً وإبراماً ، تبعاً لرغائب الأنفس والشهوات ، مما يتضجر منه كل مسيحيّ ذاق جوهر الدين المسيحيّ حقاً . إذ جوهره مع ابتداعهم على طرفي تقيض ، فأنتى لا يضيق ذرعه ولا تضنك معيشته ! لذلك لما استقر سلطان الإسلام بالأندلس ، واحتك النصرانيون بالمسلمين في الحروب الصليبية ، واستمدوا من معارف الإسلام وعلومه ما قلدهم منّا لا تنكر ، أخذوا يقاومون الكنيسة في حظرها على المعارف والفنون ، ومعاداتها للعلوم . وجرى بإغراء الكهنة ، من الدماء المسفوكة ما أسودت به صحف التاريخ . ثم كان الفوز لدعاة الإصلاح . وتفرقوا أحزاباً . ولا يزالون يقتربون إلى الإسلام ، بنبذهم سخائف ماورثوه . ولذا تراهم في عيشة ضنك يسمعون لأرق ممام عليه ، علماً بأن الدخائل والبدع في دينهم ، أفسدت عليهم ما أفسدت . ولن يتسنى لهم الرقيّ إلا بالرجوع إلى دين الفطرة . وهم يسمعون إليه ، وإن كانوا لا يشعرون ، أو يشعرون ويتجاهلون . هذه رشحات من المعيشة الضنك لأمتين عظيمتين ، وهما تنتميان إلى كتابين منزليين . فما ظنك بالمجوس والوثنيين وقرقيهم التي لا تحصى . ولا يزال عقلاؤهم يطلبون التلصص منها ، لكثرة خرافاتها وضررها ، نفساً ومالاً وعرضاً . فأهلها في شقاء وعذاب لا يشاكله عذاب . ومن نجا من ويلاتها بالإسلام ، لا يعد ولا يحصى . وقس على هؤلاء ، الطائفة المسماة بالملايين . وهم الدهريون والطبيعيون . فإنهم بلا ريب أضيق صدرأ وأضنك معيشة وأشد اضطراباً وأعظم فرقة فلا يمكن أن يوجد اثنا عشر على رأي واحد . بل يتصور كل منهم إلهه كما يهوى وكما تخيلهُ له رغائبه وشهواته . قال بعضهم : هؤلاء الذين يحصرون دينهم في أن يعرف الإنسان الله ، ويكون مستقيماً في أعماله ، إذا سئلوا :

ما هو الدين الطبيعي الذي تعترفون به ؟ فيجيبون إنما هو الذي يرشد إليه العقل عرياً عن الوحي . فيقال لهم : العقل ، من حيث هو ، ضعيف متغير قاصر . يرى اليوم صوباً ما يراه في الغد خطأً . ويحكم اليوم على أمر أنه حلال مباح ، ويرى غداً أنه حرام لا يجوز إتيانه . تحمله أغراضه على استحلال ما يلذ له وتجعله مستنفرًا مما يصاد أهواءه ، فكيف يكون صاحبه مستقيماً في أعماله ؟ وما هي القاعدة المطردة الثابتة للاستقامة عند هؤلاء ؟ وكلُّ يرى نفسه ويخيّل له أنه مستقيم !! فالصينيّ مثلاً يرى نفسه مستقيماً ولو باع أوقتل أولاده . والهنديّ يرى هذه الاستقامة في نفسه ، ولو أحرق المرأة على جثة رجلها . والوثنيّ يرى نفسه مستقيماً ، ولو ارتكب الفحشاء تسكرمة للزهرة .

هذا ، وإن أكبر الفلاسفة ضلّوا في موادّ ما يشعرون . ولم يهتدوا لجادة الاستقامة الحقّة . فأنّى يمكن إمامة الناس أن يكون لكل منهم دين طبيعيّ يقلبه كيف شاء ، ويجعله كشيء مرن ، يمدّه إلى ما طاب له ، ويقصره عن كل ما عافه . فيختلف هذا الدين باختلاف العقول والأهواء فيهم . وكيف نسمي شريعة ثابتة عامة ، ما كان وفقاً على إرادة كل فرد وأهوائه ؟ وإذا سلمنا ، مجارة ، أنه يوجد من كان ميّلاً طبعاً إلى الاستقامة والعدل والعفة ، فيحمله طبعه على ذلك ، فماذا نقول فيمن كان بالطبع محبباً للانتقام والاعتداء والشهوات . لاسيما والعقل ضعيف والنفس أمارة بالسوء . فأنّى يكون العقل وحده وازعاً عن ارتكاب المعاصي والجرائم . فما قضى سبحانه بشريعته لمخلوقاته رحمة منه بهم ، إلا لضعفهم وميلهم إلى الشر . وضعف الإنسان وانحرافه يقضى بإلزامه شريعة يخضع لها . فهي ضرورية له ضرورة نظام الأجرام الفلكية لها . وملازمة له ملازمة النطق والإدراك والحرية ، ولزوم الامتداد والثقل والجذب والدفع للأجرام الجامدة . وأول بينة على ملازمة الشريعة طبع الإنسان ، ما يجده في نفسه ووجدانه من انغراسها فيه انغراساً نظرياً . حتى لا يمكنه أن يجرد نفسه . مثلاً ، كيف يمكن للإنسان ، ولو مهما تعامى في الشر ، أن يجرد نفسه عن تصور

أنه خاضع لشرعية تنهأ عن القتل واختلاس مال غيره والاعتداء عليه بأي نوع كان؟ فالشرعية مكتوبة على قلوبنا في ألواح لحمية . ومن بحث عن عموم سكان البسطة ، وجد إجماع القبائل والشعوب قاطبة على شرائع ، وإن اختلفت في بعض موادها . والحرية التي منحت للإنسان إنما قيدت محاسنها بالشرائع والخضوع لها . وإلا فهي دمار لنظام العالم ، وجأحة للأدب ، وآفة لما غرس الباري في عقول الناس أجمعين ، من عهد آدم إلى يومنا هذا . وذلك لاستلزامها إفساد الطبع الإنساني ، والإجحاف بالشرائع الأدبية . لأن الإنسان متى علم أن ليس له إله يثيب على الخير ويعاقب على الشر ، أطلق لنفسه عنان الفساد ، وأطرح العذار في مضمار الشهوات وإحراز الرغائب ، قضاء لما يحسبه من سعادته ، واعتقاد أن نفسه ليست خالدة . وليس لسعادته موضوع خارج عن هذه العاجلة . ولاستلزامها أيضاً هدم الاجتماع الإنساني والذهاب بشأفته . إذ لا ترعى بمسد الله ذمة بين الملاء ، ولا حرمة للسنن والشرائع ، ولا برّاً بالملك ، ولا عدل بالرعية ، ولا محبة ولا صدق ولا وفاء ولا نحو ذلك مما هو ضروري بالذات لقيام الألفة البشرية ونظام العمران .

وبالجملة ، فلا يظن أحد أن العالم يدوم أويبقى فيه شيء من النظام أو الهيئة الاجتماعية ، إذا لم يكن الناس مقيدين بشرعية إلهية ، تصدّ الفاجر عن الفجور . فكما أن الهواء ضروري للحياة الطبيعية ، فكذا الشرعية ضرورية للحياة الأدبية . فلا حياة للموجودات الحية دون هواء ، فكذا لا انتظام ولا هيئة في العالم دون الشرعية . انتهى .

وقال إمام مدقق ، في بحث تصحيح الاعتقاد وضرورته لطمأنينة النفس وسعادتها ، ما مثاله : إنا نرى أمام أعيننا بعضاً من الناس قد رزقوا صحة عظيمة وثروة جسيمة وتهذبوا بأنواع العلوم والمعارف ، ولكنهم كثيرو الضجر شديدو الحيرة . لا يكادون يشعرون بالراحة ولا يلتذون بملذة . كأن لهم في لذة الماء ، وبإزاء كل فرح ترحاً ، يحسون بكآبة قد رانت على صدورهم . فلا ينامون سببها ولا يعرفون موجبها . كآبة لا ترايلهم إلا بزوال عقولهم

عنهم ، بكأس من الرحيق . فلذلك تراهم شديدي الكلف به كثيرى التحرق لفقده ، لأنه دواؤهم الوحيد . ما سر هذا الأرق والضجر ، مع هذه الصحة الجسمية وتلك الثروة المالية ، وما الأمران اللذان عليهما ، كما يزعمون ، مدار السعادة الإنسانية ؟ ما هذه الحيرة الوجدانية والوحشة الضميرية ، مع تهذبهم بأنواع العلم ، وهو كما يزعمون ، الشافي للغاس من نزغات الوسواس ؟

أما يدلنا هذا الضجر السرى على أن النفس تائفة لأمر ما ، إن غاب على الإنسان علمه ، فقد ذله عليه أثره . وإن ذلك الأمر ليس هو صحة البدن ولا وفرة المال ولا كثرة البنين ، ولا سكنى القصور ، ولا أكل الصنوف ، ولا سماع العيذان ، ولا مغازلة العيد . بل هو أمر آخر لا تمد هذه الملاذ بالنسبة له إلا هباء ، ولا الأكوان بجانبه إلا فناء . . ما هو هذا الأمر السامى الذى لو حصلت عليه النفس اطمأنت وسكنت ، وهامت به وسكرت ، ورضيت به وقنعت . هو لا شك صحة المعتقد ، وإليك الدليل :

ليست النفس من طبيعة هذه الأجسام الصماء . ولا من طينة هذه المادة العمياء ، حتى تأنس إلى شئ من أشياء هذه الأرض الحقيرة ، أو تهتم بملاذها مهما كانت كبيرة . بل هى من طبيعة نورانية محضة . فلا تأنس إلا للنور يجلى عنها ظلمات الأشياء الأرضية السكيفة ، لتشرف على حضرة القدس النيفة ، وتطل على حظائر الشريفة . النفس أجل من أن تقنع بالمشتهيات الجسائية ، وأكبر من أن ترضى بملاذها الموهة الفانية . فهما غالط الإنسان نفسه ، بجمع المال ورفاهة الحال ، ليرتاح سره ويسكن اضطرابه ، فإن النفس لا تفتأ تقيم عليه الحجة بمد الحجة ، ليتهدى إلى وضوح الحجة . فإن تبصر فى أمره ، واكتفه حقيقة سره ، وأنال نفسه بفيئتها من إبلاغها نورها المرجو لها ، سكن فؤاده وآب إليه رشاده . ولو كان جسمه بين القنا والقنابل . وحاله من الفقر فى أخس المنازل . فما هو السبيل إلى إبلاغ هذه النفس الهائمة أمنيئتها ، وإمتاعها بطلبتها ، من صحة العقيدة ؟ السبيل لذلك هو العقل

السليم . العقل في النوع الإنسانيّ خصيصة من أجلّ خصائصه ، ومنحة من أفضل منح الله عليه ، لو استعمل فيما وضع له ، واعتنى بصحته واعتداله . بالعقل يسبر الإنسان غور هذا الوجود العظيم ، على ضخامة أجزائه وعظم أبعاده . ويستكنه سير النواميس السائدة عليه ، فيستدل بها على وجود الخالق عز وجل ، وعلى تنزه أفعاله عن العبث ، وصنائه عن اللهو . كما يستدل به على علمه وتدبيره ورحمته وحكمته ، استدلالاً محسوساً لا يقبل شبهة ولا يداخله ريب . بالعقل يدرس الإنسان أحوال الجماعات البشرية . فيرى نواميس رقيتها وهبوطها ، وأسباب رفعتها وضعفها . ويتبصر في أحوال الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى خلقه هادين مرشدين . فيستدل بالتدقيق فيما جاءوا به ، وفي الآثار التي تركوها ، على معنى النبوة وضرورتها للبشر . وحكمة الله تعالى في اختلاف المدارك والإحساسات ، وفي تباين الملل والديانات . بالعقل يميز الإنسان بين أحوال الماضي والحال . فيفرق تبعاً لذلك بين الديانات الخاصة وبين الديانات العامة . ويمتد بتعميد العلم والبداهة ، على الديانة التي يجب أن تكون خاتمة الأديان كلها ، وباقية بقاء النوع الإنسانيّ ، وهي شريعة خاتم النبيين صلوات الله عليه وسلامه .

الرابعة - رأيت للإمام ابن القيم، رحمه الله، كلاماً على هذه الآية في كتابيه : (الجواب السكافي) و (مفتاح دار السعادة) فأحبت نقله هنا لفوائده وللعناية بهذه الآية، فإنها جديرة بذلك . قال في (الجواب السكافي) في فصل أبان فيه العقوبات المترتبة على المعاصي : ومنها المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ والعذاب في الآخرة . قال : وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر . ولا ريب أنه من المعيشة الضنك . والآية تتناول ما هو أعمّ منه، وإن كانت نكرة في سياق الإثبات ، فإن عمومها من حيث المعنى . فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره . فالعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه ، وإن تنعم في الدنيا بأوصاف النعم . ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب، والأمانى الباطلة

والعذاب الحاضر مافيه ، وإنما تواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة ، إن لم يفضم إلى ذلك سكر الخمر . فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر . فإنه يفيق صاحبه ، ويصحو . وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا سكر في سكر الأموات . فالعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذى أنزله على رسوله ﷺ في الدنيا وفى البرزخ ويوم المعاد . ولا تقرّ العين ولا يهدأ القلب ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذى هو حق ، وكل معبود سواه باطل ، فن قرّت عينه بالله ، قرّت به كل عين . ومن لم تقرّ عينه بالله ، تقطعت نفسه على الدنيا حسرات . والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن بالله وعمل صالحاً ، كما قال تعالى (١) (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ وَحَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح ، الجزاء فى الدنيا بالحياة الطيبة ، والحسنى يوم القيامة . فلهم أطيب الحياتين وهم أحياء فى الدارين . ونظير هذا قوله تعالى (٢) (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ، وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) ونظيرها قوله تعالى (٣) (وَأَنِ اسْتَقْرَفُوا رَبَّكُمْ تُمْ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُمْتَعَتْكُمْ مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة ، وحصلوا على الحياة الطيبة فى الدارين ، فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وإبتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسمته وعافيته ، من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة ، هو النعيم على الحقيقة . ولانسبة لنعيم البدن إليه ، فقد كان بعض من ذاق هذه اللذة يقول : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه ، لجالدونا عليه بالسيوف . وقال آخر : إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا ، إنهم لى عيش

(٢) [١٦ / النحل / ٣٠] .

(١) [١٦ / النحل / ٩٧] .

(٣) [١١ / هود / ٣] .

طَيِّب . وقال آخر : إن في الدنيا جنة ، هي في الدنيا كالجنة في الآخرة . من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

وقد^(١) أشار النبي ﷺ إلى هذه الجنة بقوله : (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر . وقال^(٢) : ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة) ولا تظن أن قوله تعالى^(٣) (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) يختص بيوم المعاد فقط ، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة . وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة . وأى لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة الرب تعالى ومحبته والعمل على موافقته ؟ وهل عيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم ؟ وقد أنبئني الله تعالى على خليله عليه السلام بسلامة قلبه فقال^(٤) (وَإِنَّ مِنْ شَيْعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ وَقَلْبِ سَلِيمٍ) وقال حاكياً عنه أنه قال^(٥) (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة . فسلم من كل آفة تبعد من الله ، وسلم من كل شبهة تعارض خبره ، ومن كل شهوة تعارض أمره . وسلم من كل إرادة تراحم مراده . وسلم من كل قاطع يقطع عن الله . فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا ، وفي جنة في البرزخ وفي جنة يوم المعاد . انتهى ملخصاً .

(١) أخرجه الترمذى في : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ٨٢ - باب حدثنا يوسف بن حماد البصرى .

(٢) أخرجه البخارى في : ٢٠ - كتاب الصلاة في مسجد مكة والمدينة ، ٥ - باب فضل ما بين القبر والمنبر ، حديث ٦٤٨ ، عن عبد الله بن زيد المازنى .

(٣) [٨٢ / الانتظار / ١٤ و ١٣] . (٤) [٣٧ / الصافات / ٨٣ و ٨٤] .

(٥) [٢٦ / الشعراء / ٨٨ و ٨٩] .

وقال رحمه الله في (مفتاح دار السعادة) : فسّر غير واحد من السلف قوله تعالى (فَإِنَّ لَهُ وَمَعِيشَةً ضَنْكًا) بعذاب القبر . وجعلوا هذه الآية أحد الأدلة الدالة على عذاب القبر . ولهذا قال (وَنَحْشُرُهُ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى) أى ترك في العذاب كما تركت العمل بآياتنا. فذكر عذاب البرزخ وعذاب دار البوار. ونظيره قوله تعالى في حق آل فرعون (١) (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا) فهذا في البرزخ (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) فهذا في القيامة الكبرى . ونظيره قوله تعالى (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ) فقول الملائكة (اليوم تجزون عذاب الهون) المراد به عذاب البرزخ الذى أوله يوم القبض والموت. ونظيره قوله تعالى (٣) (وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) فهذه الإذاعة في البرزخ . وأولها حين الوفاة ، فإنه معطوف على قوله (يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) وهو من القول المحذوف لدلالة الكلام عليه كمنظأره . وكلاهما واقع وقت الوفاة .

وفي الصحيح (٤) ، عن البراء بن عازب في قوله (٥) (يُنشِئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) قال : نزلت في عذاب القبر . والأحاديث في عذاب

(١) [٤٠ / غافر / ٤٦] . (٢) [٦ / الأنعام / ٩٣] .

(٣) [٨ / الأنفال / ٥٠] .

(٤) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١٤ - سورة إبراهيم ، ٢ - باب

ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ، حديث ٧٢٥ .

(٥) [١٤ / إبراهيم / ٢٧] .

القبر تكاد تبلغ حد التواتر . والمقصود أن الله سبحانه أخبر أن من أعرض عن ذكره وهو الهدى الذى من اتبعه لا يضل ولا يشقى ، بأن له معيشة ضنكاً، وتكفل لمن حفظ عهده أن يحيه حياة طيبة ويجزيه أجره فى الآخرة فقال (١) تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فأخبر سبحانه عن فلاح من تمسك بعمده علماً وعملاً فى العاجلة بالحياة الطيبة ، وفى الآخرة بأحسن الجزاء . وهذا بمكس من له المعيشة الضنك فى الدنيا والبرزخ، ونسيانه فى العذاب فى الآخرة . وقال سبحانه (٢) (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ وَشَيْطٰنًا فَهُوَ لَهُ وَقرينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ) فأخبر سبحانه أن ابتلاءه بقرينه من الشياطين وضلاله به ، إنما كان لسبب إعراضه وعشوه عن ذكره الذى أنزله على رسوله . فكان عقوبة هذا الإعراض، أن يقيض له شيطاناً يقارنه فيصدّه عن سبيل ربه وطريق فلاحه . وهو يحسب أنه مهتد . حتى إذا وافى ربه يوم القيامة من قرينه، وعابن هلاكه وإفلاسه قال (٣) (يَايَمٰتَ بَنِيٓنَا وَبَيْنٰكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَّبِعُنَا الْقَرِيْنُ) وكل من أعرض عن الاهتمام بالوحي الذى هو ذكر الله ، فلا بد أن يقول هذا يوم القيامة .

فإن قيل : فهل لهذا عذر فى ضلاله ، إذا كان يحسب أنه على هدى كما قال تعالى (٤) (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ) ؟ قيل : لا عذر لهذا وأمثاله فى الضلال ، الذين منشأ ضلالهم الإعراض عن الوحي الذى جاء به الرسول . ولو ظن أنه مهتد ، فإنه مفرط بإعراضه عن اتباع داعى الهدى . فإذا ضل فإنما أتى من تفریطه وإعراضه . وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة ، وعجزه عن الوصول إليها ، فذاك له حكم آخر .

والوعيد فى القرآن إنما يتناول الأول . وأما الثانى فإن الله لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة

(١) [١٦ / النحل / ٩٧] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٣٦ و ٣٧] .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٣٨] . (٤) [٤٣ / الزخرف / ٣٧] .

الحجة عليه كما قال تعالى^(١) (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) وقال تعالى^(٢) (رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ ۚ بَعْدَ الرُّسُلِ) وقال تعالى في أهل النار^(٣) (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) وقال تعالى^(٤) (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرْتَنِي أَعَمِّي مَا فَرَّقْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَأً أَيْتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ) وهذا كثير في القرآن .

الخامسة - قال ابن القيم : اختلف في قوله تعالى (وَنَحْشُرُهُو يَوْمَ الْقِيٰمَةِ اَعْمَى) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيْ اَعْمَى (هل هو من عمى البصيرة أو من عمى البصر ؟ والذين قالوا هو من عمى البصيرة ، إنما حملهم على ذلك قوله تعالى^(٥) (أَسْمِعْ يٰهَيْرَمُ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا) وقوله^(٦) (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هٰذَا فَكشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) وقوله^(٧) (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرٰى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ) وقوله^(٨) (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) ونظائر هذا مما يثبت لهم الرؤية في الآخرة لقوله^(٩) (وَتَرٰهُمْ يُمْرَضُونَ عَلَيْهَا خٰشِعِينَ مِّنَ الدَّلٰلِ يَنْظُرُونَ مِّنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ) وقوله^(١٠) (يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً * هٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذَّبُونَ * اَفْسِحْرٰ هٰذَا اَمْ اَنْتُمْ لَا تَبْصِرُونَ) وقوله^(١١) (وَرٰءَ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا اَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا) .

- | | |
|------------------------------|-------------------------------|
| (١) [١٧ / الإسرائء / ٩٥] . | (٢) [٤ / النساء / ١٦٥] . |
| (٣) [٤٣ / الزخرف / ٧٦] . | (٤) [٣٩ / الزمر / ٥٦-٥٩] . |
| (٥) [١٩ / صميم / ٣٨] . | (٦) [٥٠ / ق / ٢٢] . |
| (٧) [٢٥ / الفرقان / ٢٢] . | (٨) [١٠٢ / التكاثر / ٧٥٦] . |
| (٩) [٤٢ / الشورى / ٤٥] . | (١٠) [٥٢ / الطور / ١٣-١٥] . |
| (١١) [١٨ / الكهف / ٥٣] . | |

والذين رجحوا أنه من عمى البصر ، قالوا : السياق يدل عليه لقوله (قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا) وهو لم يكن بصيراً في كفره قط ، بل قد تبين له حينئذ أنه كان في الدنيا في عمى عن الحق . فكيف يقول (وقد كنت بصيراً) وكيف يجاب بقوله (كَذَلِكَ أَنْتَ لَآ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا) ؟ بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر وأنه جوزى من جنس عمله . فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله وعميت عنه بصيرته ، أعمى الله به بصره يوم القيامة ، وتركه في العذاب ، كما ترك الذكر في الدنيا ، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة . وعلى تركه ذكره ، تركه في العذاب . وقال تعالى (١) (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَمُهْتَدٍ ، وَمَنْ يُضِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ، وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبُكْمًا وَصُمًّا) وقد قيل في هذه الآية أيضاً : إنهم عمى وبكم وضم عن الهدى . كما قيل في هذه الآية (٢) قوله (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) قالوا : لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون .

ومن نصر أنه العمى والبكم والصمم ، المضاد للبصر والسمع والنطق ، قال : هو عمى وضم وبكم مقيد لا مطلق . فهو عمى عن رؤية ما يسهروهم وسماعه . وهذا قد روى عن ابن عباس قال : لا يرون شيئاً يسهروهم . وقال آخرون : هذا الحشر حين تفوهم الملائكة ، يخرجون من الدنيا كذلك . فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك . ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد . وهذا مروى عن الحسن .

وقال آخرون : هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها ، سلبوا الأسماع والأبصار والنطق ، حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى (٣) (اخْسُؤْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ) حينئذ ينقطع الرجاء وتبكم عقولهم فيبصرون بأجمعهم ، عمياً بكماً صماً ، لا يبصرون

(١) [١٧ / الإسراء / ٩٧] . (٢) [٢٠ / طه / ١٢٤] . (٣) [٢٣ / المؤمنون / ١٠٨]

ولا يسمعون ولا ينطقون . ولا يسمع فيها بعدها إلا الزفير والشهيق . وهذا منقول عن مقاتل .

والذين قالوا: المراد به العمى عن الحجّة، إنما مرادهم أنهم لاجحة لهم، ولم يريدوا أن لهم حُجَّةً، هم عمى عنها، بل هم عمى عن الهدى كما كانوا في الدنيا. فإن العبد يموت على ما عاش عليه . ويبعث على ما مات عليه . وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر ، وأنه عمى البصر . وأن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عياناً ، ويقرّ بما كان يجحد في الدنيا . فليس هو أعمى عن الحق يومئذ .

وفصل الخطاب؛ أن الحشر هو الضم والجمع . ويراد به تارة الحشر إلى موقف القيامة ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم^(١) (إنكم محشورون إلى حفاة عراة) وكقوله تعالى^(٢) (وَإِذَا أُلُوهُنَّ لُحُوشُ حُشِرَاتٍ) وكقوله تعالى^(٣) (وَاحْشَرْنَا لَهُمْ فَلَمَّ نُبَاتِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا) ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر . فحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة . وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار. لأنه قد أخبر عنهم أنهم قالوا^(٤) (يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ * هَذَا يَوْمُ الْفُضْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَكْبِرُونَ) ثم قال تعالى^(٥) (أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ...) الآية وهذا الحشر الثاني . وعلى هذا فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلى الموقف والحشر الثاني، يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون، وعند الحشر الثاني يحشرون على وجوههم عمياً وبكاً وصماً . ولكل موقف حال يليق به ، ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته . فالقرآن يصدق بعضه بعضاً^(٦) (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) . انتهى .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٨ - باب قول الله تعالى : واتخذ الله

إبراهيم خليلاً ، حديث ١٥٨٥ عن ابن عباس . (٢) [٨١ / التكوير / ٥] .

(٣) [١٨ / الكهف / ٤٧] . (٤) [٣٧ / الصافات / ٢٠ و ٢١] .

(٥) [٣٧ / الصافات / ٢٢] . (٦) [٤ / النساء / ٨٢] .

السادسة - قوله تعالى (وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى) أى لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك ، تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها . كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك^(١) (فَأَلْيَوْمَ نَنسَمُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا) فإن الجزاء من جنس العمل . فالنسيان مجاز عن الترك .

قال ابن كثير : فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه ، والقيام بمقتضاه ، فليس داخلاً في هذا الوعيد الخاص . وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى . فإنه قد وردت السنة بالنهي الأكد والوعيد الشديد في ذلك .

روى الإمام أحمد عن سعد بن عبادة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال^(٢) (ما من رجل قرأ القرآن فنسيه ، إلا لقي الله يوم يلقاه ، وهو أجذم) ؛

السابعة - قوله تعالى (وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ...) الآية ، أى وهكذا نجزي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة . وعذاب الآخرة أشد وأبقى ، من ضحك العيش في الدنيا . لكونه دائماً . ثم أشار تعالى إلى تقرير ما تقدم من لحوق العذاب ، بقوله سبحانه : القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ ،
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهى)

« أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ » أى لهؤلاء المكذبين « كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ » أى الأمم المكذبة للرسل « يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ » يريد قريشا ، أى يتقلبون في بلاد عاد وثمود ولوط ويعابنون آثار هلاكهم ، وأن ليس لهم باقية ولا عين ولا أثر « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهى » أى العقول السليمة . كما قال تعالى^(٣) (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ

(١) [٧ / الأعراف / ٥١] . (٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٨٤ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) . (٣) [٢٢ / الحج / ٤٦] .

فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى)

« وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى » بيان لحكمة تأخير عذابهم مع إشعار قوله (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ . . .) الآية ، بإهلا كههم مثل هلاكك (أولئك) . والكلمة السابقة ، قال القاشاني : هو القضاء السابق أن لا يستأصل هذه الأمة بالدمار والعذاب في الدنيا ، لكون نبيهم نبي الرحمة . وقوله سبحانه ^(١) (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) .

وقال الزمخشري : الكلمة السابقة هي العدة بتأخير جزائهم إلى الآخرة . يقول : لولا هذه العدة لكان مثل إهلاكنا عاداً وتمدود لازماً لهؤلاء الكفرة . و (اللزوم) إما مصدر (لازم) كالخضام ، وصف به مبالغة . أو اسم آلة لأنها تبنى عليه كحزام وركاب ، واسم الآلة يوصف به مبالغة أيضاً ، كقولهم : مسعر حرب ، ولزأز خصم بمعنى ملح على خصمه . من (لزأ) بمعنى ضيق عليه .

وجوز أبو البقاء فيه كونه جمع (لازم) . كقيام جمع قائم .

وقوله تعالى (وَأَجَلٌ مُسَمًّى) عطف على (كلمة) أي ولولا أجل مسمى لأعمارهم أو لعذابهم ، وهو يوم القيامة أو يوم بدر ، لما تأخر عذابهم أصلاً .

قال أبو السعود : وفصله عما عطف عليه ، للإشعار باستقلال كل منهما ، بنفي لزوم العذاب ومرعاة فواصل الآية الكريمة .

(١) [٨ / الأنفال / ٣٣] .

وقد جوز عطفه على المستكن في (كان) العائد إلى الأخذ العاجل ، المفهوم من السياق ، تنزيلاً للفصل بالخبر منزلة التأكيد . لكان الأخذ العاجل ، وأجل مسمى لازمين لهم . كدأب عاد وحمود وأضرابهم . ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ)
 « فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ » أي إذا كان تأخير عذابهم ليس بإهمال بل إهمال ، فاصبر على ما يقولون من كلمات الكفر . فالفاء سببية . والمراد بالصبر عدم الاضطراب لما صدر منهم ، لا ترك القتال حتى تسكون الآية منسوخة .
 وفي التسييح الأمور به وجهان :

الأول - أنه التنزيه . والمعنى : ونزه ربك عن الشرك وسائر ما يضيفون إليه من النقائص ، حامدا له على ما ميزك بالهدى ، معترفاً بأنه المولى للنعم كلها . ومن صيغه المأثورة (سبحان الله وبحمده) . وعليه فسر تخصيص هذه الأوقات الإشارة إلى الدوام ، مع أن لبعض الأوقات مزية يفضل بها غيرها .

الثاني - أنه الصلاة وهو الأقرب لآية^(١) (وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) والآيات يفسر بعضها بعضاً . والمعنى : صلّ وأنت حامد لربك على هدايته وتوفيقه ، قبل طلوع الشمس ، يعني صلاة الفجر . وقبل غروبها ، يعني صلاة الظهر والعصر ، لأنهما واقعتان في النصف الأخير من النهار ، بين زوال الشمس وغروبها (وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ) أي من ساعاته ، يعني المغرب والعشاء . وإنما قدم الوقت فيها ، لاختصاصهما بمزيد الفضل . وذلك

(١) [٢ / البقرة / ٤٥] .

لأن أفضل الذكر ما كان بالليل لاجتماع القلب وهدوء الرّجلِ والخلوّ بالرب تعالى . ولأن الليل وقت السكون والراحة ، فإذا صرف إلى العبادة كانت على النفس أشد وأشق ، وللبدن أتعب وأنصب ، فكانت أفضل عند الله وأقرب .

وقوله تعالى (وَأَطْرَافَ النَّهَارِ) تكرر لصلاة الفجر والمغرب ، إيداناً باختصاصهما بمزيد مزية . ومجيئه بلفظ الجمع لأمن الإلباس ، والمرجح مشاكلته لـ (ءَأَنَاءِي الْيَلِّ) أو أمر بصلاة الظهر . فإنه نهاية النصف الأول من النهار ، وبداية النصف الأخير . وجمعه باعتبار النصفين . أو لأن النهار جنس فيشمل كل نهار . أو أمر بالتطوع في أجزاء النهار . وقال الرازي : إنما أمر ، عقيب الصبر ، بالتسبيح ، لأن ذكر الله تعالى يفيد السلوة والراحة . إذ لا راحة للمؤمنين دون لقاء الله تعالى . قلت : وقد أشير إلى حكمة الأمر بالصبر والتسبيح بقوله تعالى (لَعَلَّكَ تَرْضَى) أى رجاء أن تنال ما به ترضى نفسك ، من رفع ذكرك . وتقهرك على عدوك وبلوغ أمنيته من ظهور توحيد ربك وهذا كقوله تعالى^(١) (عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا) وقوله تعالى^(٢) (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ) .

ثم أشار تعالى إلى أن ما متع به الكفار من الزخارف ، إنما هو فتنة لهم فلا ينبغي الرغبة فيه ، وإن ما أوتيه أجل وأسمى ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا لِنَفْسِهِمْ فِيهِ ، وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ)

« وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ » أى أصنافاً من الكفرة

(١) [١٧ / الإسرائ / ٧٩] . (٢) [٩٣ / الضحى / ٥] .

« زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى زينتها . منصوب على البدلية من (أَزْوَاجًا) أو بد (مَتَعْنَا) على تضمينه معنى : أعطينا وخولنا « لِنَنْفَقْتَهُمْ فِيهِ » أى لنختبرهم فيما متعناهم به من ذلك ونبتلهم . فإن ذلك فإن وزائل وغرور وخذع تضمحل .

قال أبو السعود : (لِنَنْفَقْتَهُمْ) متعلق بد (مَتَعْنَا) جىء به للتنفير عنه ببيان سوء عاقبته مآلا ، إثر إظهار بهجته حالاً . أى لنعاملهم معاملة من يتلهم ويختبرهم فيه . أو لنعذبهم فى الآخرة بسببه « وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى » أى ثوابه الأخرى خير فى نفسه مما متعوا به وأدوم ، كقوله تعالى^(١) (ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) أو المعنى ما أوتيت من النبوة والهدى ، خير مما فتنوا به وأبق ، لأنه لا مناسبة بين الهدى الذى تتبعه السعادة فى الدارين ، وبين زهرة يتمتع بها مدة ثم تدبل وتنفى . وفى التعبير بد (الزهرة) إشارة لسرعة الاضمحلال ، فإن أجلها قريب . ومن لطائف الآية مقاله الزخشرى رحمه الله ، ونصه : مد النظر تطويله وأن لا يكاد يرد استحسنانا للنظور إليه ، وإعجاباً به وتمنياً أن يكون له . كما فعل نظارة قارون حين قالوا^(٢) (يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) حتى واجههم أولو العلم والإيمان^(٣) بد (وَيَلْسَكُمُ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) .

وفيه : أن النظر غير الممدود معفو عنه . وذلك مثل نظر من بادء الشىء بالنظر ثم غض الطرف . ولما كان النظر إلى الزخارف كالتركوز فى الطباع ، وإن من أبصر منها شيئاً أحب أن يمد إليه نظره ويملاً منه عينيه ، قيل : ولا تمدن عينيك . أى لا تفعل ما أنت معتاد له وضارٍ به . ولقد شدد العلماء من أهل التقوى فى وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة ، وُعِدَّ الفسقة فى اللباس والمراكب وغير ذلك ، لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة ،

(١) [٢٨ / القصص / ٨٠] .

(٢) [٢٨ / القصص / ٧٩] .

(٣) [٢٨ / القصص / ٨٠] .

فالناظر إليها محصل لغرضهم ، وكالغري لهم على اتخاذها . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا، لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا، نَحْنُ نَرْزُقُكَ،
وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)

« وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ » يعني (بأهله) أهل بيته أو التابعين له . أى مرهم بإقامتها لتجذب قلوبهم إلى خشية الله « وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » أى على أدائها ، لترسخ بالصبر عليها ملكة الثبات على العبادة ، والخشوع والمراقبة ، التى ينتج عنها كل خير . ثم أشار تعالى إلى أن الأمر بها ، إنما هو لفلاح المأمور ومنفعته ، ولا يعود على الأمر بها نفع مآ ، لتعاليمه وتنزهه بقوله « لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ » أى لا نسألك مالا . بل نكفئك عملا بيدك نؤتيك عليه أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً . ومعنى : نحن نرزقك ، أى نحن نعطيك المال ونكسبك ولا نسألكه . قاله ابن جرير (١) .

وقال أبو مسلم : المعنى أنه تعالى إنما يريد منه ومنهم العبادة . ولا يريد منه أن يرزقه كما تريد السادة من العبيد الخراج . وهو كقوله تعالى (٢) : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا) وقال بعض المفسرين : معنى الآية . أقبل مع أهلك على الصلاة واستمعينوا بها على خصاصتكم . ولا تهتموا بأمر الرزق والمعيشة ، فإن رزقك مكفى من عندنا ، ونحن رازقوك . وهذا المعنى لا تدل عليه الآية منطوقاً ولا مفهوماً . وفيه حض على القعود عن الكسب ، ومستند للكسالى القانعين بسكنى المساجد عن السعى المأمور به . وقد قال تعالى (٣) : (فِي وَصْفِ الْمُتَّقِينَ (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٦ من الجزء السادس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٥١ / الذاريات / ٥٦ و ٥٧] . (٣) [٢٤ / النور / ٣٧] .

تَجْرَةً وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ (إشارة إلى جمعهم بين الفضيلتين . (رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةٌ) (١) .

وقوله تعالى « وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى » أى والعاقبة الحسنة من عمل كل عامل ، لأهل التقوى والخشية من الله ، دون من لا يخاف له عقاباً ولا يرجو له ثواباً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] (وَقَالُوا لَوْلَا يَا تَيْنَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِمْ ، أَوْ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى)

« وَقَالُوا لَوْلَا يَا تَيْنَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِمْ » يعنون ما تعنتوا فى اقتراحه مما تقدم ، فى سورة بنى إسرائيل ، من قوله تعالى (٢) (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَمْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ . . .) الآية .

وقوله تعالى « أَوْ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى » أى : أو لم يأتهم بيان ما فى الكتب التى قبل هذا الكتاب ، من أنباء الأمم من قبلهم ، التى أهلكتناهم لما سألوا الآيات ، فكفروا بها لما أتتهم ، كيف عجّلنا لهم العذاب ، وأنزلنا بهم بأسنا بكفرهم بها . يقول : فاذا يؤمنهم إن أتتهم الآية ، أن يكون حالهم حال أولئك . هذا ما قاله ابن جرير (٣) .

وذهب غيره إلى أن المعنى : أو لم يأتهم آية هى أم الآيات وأعظمها ، وهى معجزة القرآن المبينة لما فى الكتب الأولى من التوراة والإنجيل والزبور . مع أن الآتى بها أمى لم يرها ولم يتعلم ممن علمها . فنقب منها على الصحيح من أنبأها فصدقه ، وعلى الباطل المحرف ففندّه .

(١) [٢ / البقرة / ٢٠١] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٩٠ و٩١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٢٣٧ من الجزء السادس عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وفيه إشارات بكفاية التنزيل في الإعجاز والبرهان كما قال تعالى^(١) في سورة العنكبوت (وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرًا لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) ولذلك قال أحد حكماء الإسلام. إن الخارق للعادة الذي يعتمد عليه الإسلام في دعوته إلى التصديق برسالة النبي ﷺ هو الخارق الذي تواتر خبره ولم ينقطع أثره. وهو الدليل وحده. وماعدها مما ورد في الأخبار، سواء صح سندها أو اشهر أو ضعف أو وهى، فليس مما يوجب القطع عند المسلمين. فإذا أورد في مقام الاستدلال، فهو على سبيل التقوية للعقد لمن حصل أصله، وفضل من التأكيده لمن سلمه من أهله. ذلك الخارق المتواتر المعول عليه في الاستدلال لتحصيل اليقين، هو القرآن وحده. والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة، تدل على أن موحيه هو الله وحده وليس من اختراع البشر، هو أنه جاء على لسان أمي لم يتعلم الكتاب ولم يمارس العلوم، وقد نزل على وتيرة واحدة هاديا للضلال مقومًا للمعوج كافيًا بنظام عام لحياة من يهتدى به من الأمم، منقذًا لهم من خسران كانوا فيه. وهلاك كانوا أشرفوا عليه. وهو مع ذلك من بلاغة الأسلوب على ما لم يرتق إليه كلام سواه، حتى لقد دعي الفصحاء والبلغاء، أن يعارضوه بشيء من مثله، فعجزوا ولجأوا إلى المجادلة بالسيوف، وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به، إلى أن ألجأهم إلى الدفاع عن حقهم، وكان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل وظهور شمس الإسلام تمد عالمها بأضوائها، وتنتشر أنوارها في جوائها. وهذا الخارق قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم. وطولبوا بأن يأتوا في نظرهم على آخر ما تنتهى إليه قوتهم، فما وجدوا طريقًا لإبطال إعجازه أو كونه لا يصلح دليلًا على المدعى، فعلمهم أن يأتوا به، قال تعالى^(٢) (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ) وقال^(٣)

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٥١٥٠]. (٢) [٢ / البقرة / ٢٣]. (٣) [٤ / النساء / ٨٢].

(أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرُءَانَ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) وقال غير ذلك ، مما هو مطالبة بمقاومة الحججة بالحجة . ولم يطالبهم بمجرد التسليم على رَغْمٍ من العقل .

معجزة القرآن جامع من القول والعلم . وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم . فهي معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضى فيها ، وأطلقت له حق النظر فى أحنائها . ونشر ما انطوى فى أثنائها . وله منها حظه الذى لا ينتقص . فهى معجزة أعجزت كل طوق أن يأتى بمثلبا . ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما تشاء منها . أمام معجزة موت حتى بلا سبب معروف للموت ، أو حياة ميت أو إخراج شيطان من جسم ، أو شفاء علة من بدن ، فهى مما ينقطع عنده العقل ويحمد لديه الفهم . وإنما يأتى بها الله على يد رسله لإسكات أقوام غلبهم الوهم ولم تضى عقولهم بنور العلم . وهكذا يقيم الله بقدرته من الآيات للأمم على حسب الاستعدادات . وقال فاضل آخر : قضت مراحم الله جل شأنه أن يكون الأكوان فى الطبيعة على ترتيب محكم ، ينطق بلسان الصمت للمتبصر ، ويظهر بلباس الوضوح للمتفكر ، ويجب إليه الانتقال منه إلى غيره بدون أن يشعر بجل ولا سامة ، ولا يؤوب من استبصاره بندامة ، بدون هذا الاعتبار بالعقل ، لا يأتى للنفس أن تصح عقيدتها ، ولا يتأتى لها تبعاً لذلك أن تسكن من اضطرابها . وهذا ، ولا ننكر أنه قدمضى على النوع الإنسانى زمن كان فيه العقل فى دور الطفولية . وكان يكفيه فى الإيمان أن يندهش لأمر خارق للطبيعة ، يعطل من سير نواميسها وقتاً ما . وكان الله سبحانه وتعالى يرأف بعباده فيرسل إليهم رسلاً يتمتعهم بخصائص تعجز عن اكتناه سرها عقولهم . وتندهش لها ألبابهم ، فيستدلون بهذه المعجزات على صدق الرسول وضرورة اتباعه ، وأما الآن ، حيث بلغ العقل أشده ، والنوع الإنسانى رشده ، فلا يجدى فيه معجزة ، ولا تنفع فيه غريسة . لأن الشكوك قد كثرت مع كثرة المواد العلمية . فإن حدث حادث من هذا القبيل رموا فاعله بالتدليس أو لا ، ثم إذا ظهر لهم براءته منه أخذوا يعملون معجزته بكل أنواع التعليقات . هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، فإن طائفة الاسبيريت

الروحيين في أوربا ، تعمل الآن من الأعمال المدهشة المحارقة لنواميس الطبيعة ، ما لو رآه الجاهل لظنوا به أنه من أكبر المعجزات ، مع أن القوم لا يدعون النبوة ، ولا يزعمون الرسالة . نعم ، لا ننكر أن أعمال هذه الطائفة ليست من نوع معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولكنه بدون شك ، يقلل من أهميتها في نظر الذين يقفون مع ظواهر الأشياء .

ومما يدل على أن هذه القرون الأخيرة لا تروج فيها مسائل المعجزات ، تكذيب علماء أوربا بكل المعجزات السابقة . وهو ، وإن كان تهورا منهم ، إلا أنهم مصيبون في قولهم إننا في زمان لا يجدى فيه للاعتقاد إلا النور العقلي والدليل العلمي . لهذه الأسباب جاءت الشريعة الإسلامية تدعو إلى السبيل الحق ، ببدائه العقل ، وقواعد العلم . صارفة النظر عن المعجزات وإظهار المدهشات . لعلم الله سبحانه وتعالى بأنه سيأتي زمان تؤثر فيه المقررات العلمية على القوة العقلية ، ما لا تؤثر عليها الخوارق للنواميس الطبيعية . انتهى . ثم أشار تعالى إلى منتهى في إرسال الرسول صلوات الله عليه ، والإعذار ببعثته ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٤] (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ

إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنزِلَ وَنَحْزِي)

[١٣٥] (قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا ، فَسَتَمَومُونَ مَن أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ

وَمَن أَهْتَدَى)

« وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ » أى من قبل إتيان البينة ، أو محمد عليه السلام « لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنزِلَ » أى بالعذاب الدنيوى « وَنَحْزِي » أى بالعذاب الأخرى . أى ولكننا لم نهلكهم قبل إتيانها .

فانقطعت معذرتهم . فعند ذلك ، قالوا : بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء
« قُلْ » أى لأولئك الكفرة المتمردين « كُفُّوا » أى منا ومنكم « مُتَرَبِّصٌ » أى منتظر
لما يؤول إليه أمرنا وأمركم « فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ » أى عن قرب « مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ
السَّوِيِّ » أى المستقيم « وَمَنْ أَهْتَدَى » أى من الزيغ والضلالة . أى هل هو النبي
وأتباعه ، أم هم وأتباعهم .

وقد حقق الله وعده . ونصر عبده . وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده . فله الحمد
فى الأولى والآخرة .